# أيام في البدروسيَّة

العنوان: أيام في البدروسية

تأليف: حازم ضاحي شحادة

الطبعة الأولى: 2020

تصميم الغلاف: ASS

ISBN: 978-9933-9288-8-9

**All rights reserved.** No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

**جميع الحقوق محفوظة.** لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أيّ جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، من دون أذن خطّي مُسبق من الناشر.

آس للنشر

سوريا . بانياس

0996772342

E-mail:assdar2021@gmail.com

**Facebook: آس للطباعة والنشر**

حازم ضاحي شحادة

# أيَّامٌ في البدروسيَّة

قصص قصيرة

**والعُمرُ يا صاحِبي يَجري كَمَن هَرَبَا...**

**"حازم"**

## الرسالةُ الأولى منها.. والأخيرة

طلبتُ من سائقِ السرفيس أن يقفَ قربَ نفقِ الآدابِ ففعلَ وترجّلتُ بعدَ أن أنقدتهُ الأجر.

كانت سماءُ العاصمةِ مُلبَّدةً بغيمٍ داكنٍ، وعشراتُ الطلبةِ قادمونَ من السّكنِ الجامعي باتجاهِ النفقِ الذي يَصلهم من تحتِ شارعِ المَزّة السريعِ بجامعتهم.

أشعلتُ سيجارةً ونزلتُ بضعَ درجاتٍ مع النّازلين ثمَّ عَبرنا. مَا أن خرجتُ منَ النفقِ حتّى وقفتُ أمامَ كشكِ الصحفِ المُجاورِ لبوّابةِ الجامعةِ وابتعتُ جريدة (الشرق).

لم تكن غايتي مِن شراءِ الجريدةِ أن أتثقّفَ كَوني أدرسُ الإعلام فمن يريدُ الثقافةَ يجدها في الكُتبِ لا الصحفِ بيدَ أنّي أدمنتُ شراءَ تلكَ الجريدةِ والاحتفاظَ بصورِ النساءِ المُثيراتِ التي كانت تَنشرها في صدرِ صفحتها الأخيرة.

بعدَ أن ولجتُ البوابةَ الكبيرةَ غدت كلية الطبِّ عن يَميني فاتّجهتُ يَساراً. مشيتُ قليلاً ثمّ دخلتُ مبنى قسمِ الإعلامِ وكانَ منَ المُقرّرِ ضمنَ البرنامجِ الدراسي أن أشهدَ محاضرةً للدكتور (عطا الله الرمحين) لكنَّ حضورها لم يكن هدفي الوحيد.

مذ وَطأت قدميَّ عام **2001** أرضَ الآدابِ الدمشقية كطالبٍ غرٍّ في سنتهِ الأولى قادماً من قريةٍ بسنادا الساحلية لاحظتُ بين باقةِ زميلاتِي في القسمِ فتاةً فارعةَ الطّولِ ذات ملامحٍ روسيّةٍ فاتنة يبدو من مُقارنةٍ بسيطةٍ بينَ نوعيةِ ملابسي وملابسها الفارقُ الطبقي المهول لكن، في تلكَ الأزمنةِ لم أكن سوى أسدٍ لا يعترفُ بهذهِ الفوارقِ ويهجمُ على الغزالةِ التي يُريدها حتى وإن كانت ابنةَ وزير.. طبعاً ما من داعٍ للإحراجِ يا رفاق ولنقف عندَ هذا الحد.

على الدرجِ الموصلِ إلى الطابقين الثاني والثالث كانَ الأصدقاءُ جالسين يحتسونَ الشاي ويعبّونَ التبغَ فانضممتُ إليهم ورحنا نراقبُ كأيِّ طلابٍ جامعيين مُحترمين مؤخِّراتِ الزميلاتِ.. بِشبق.

حينَ أزفَ موعدُ المحاضرةِ توجَّهنا إليها ولم يكن الدكتور الرمحين قد وصلَ بعد.

صدقوا أو لا تصدقوا، في غيابِ المُحاضرِ كنّا نشربُ السجائرَ داخل المُدرّجِ بكلِّ أريحيّةٍ فأخرجتُ من جيبِ معطفي علبةَ التبغِ وأشعلتُ سيجارة بينما كانت عينايَ تبحثانِ عن الفتاةِ الفولغاويّة.

كانَ المُدرَّجُ الكبيرُ مُقسَّمَاً إلى ثلاثةِ أجزاء. رأيتُ الفتاة جالسة في منتصفِ الأيسر وحينَ أصبحتُ على مقربةٍ منها التقت عيوننا فأشرتُ إليها بيدي.

حينَ نَهضت واستأذنت صديقاتها كي يُفسحنَ المجالَ قلتُ لنفسي:

.الله أكبر.

من الخارجِ كانَ يصلُ بين الحينِ والآخرِ صوتُ الرعدِ هادراً أمّا الدكتور الرمحين فأسعدَ الله قلبهُ أينما كانَ لأنّهُ غابَ عن تلكَ المُحاضرة.

قلتُ عندما أصبحت أمامِي:

.أريدُ أن أجلسَ إلى جوارِكِ إن كنتِ لا تُمانعين.

ابتسمت الفتاةُ ورفعت أصابعَ يدها النحيلة إلى خصلاتِ شعرها الذهبية التي انسدلت أمامَ عينيها وأزاحتها برويّةٍ ثم قالت:

.مجنون رسمي لكن.. لم لا.

كانت الضوضاءُ الصّادرةُ عن الطلبةِ داخلَ المُدرّجِ ظريفةً وغير مزعجةٍ لا بل إنّ ماهر ورفاقهُ في المقاعدِ الأخيرة وزّعوا ورقَ اللعبِ وبدأوا يمارسونَ (التريكس) وقد تناهى إلى سمعي صوتُ ماهر وهو يشتمُ شريكهُ لأنه (أكلَ) ختيار الكوبة.

بعدَ أن أمعنتُ النظرَ في تينكَ العينينِ البحريّتين قُلت:

. اسمي فلانٌ وسعادتي بالجلوسِ قربكِ لا تُعادلها سعادة كولومبوس حين اكتشفَ ذلكَ الشاطئ. ما اسمك؟

ابتسمت الصبيةُ ابتسامةً لا أنساها مَا حييت وقالت:

.ريمَا..

سحبتُ من سيجارتي نفسَاً عميقاً ثمَّ قلت:

.سأخبركِ شيئاً باحَ لكِ به كلُّ من صادفكِ على الأرجحِ لكن لا مفرَّ:

.تبدينَ كفتاةٍ روسيّةٍ لا عربيّة.

قالت ريما بصوتهَا الشجي:

.لأنّني شركسية.

سابقاً، لم يُحالفني الحظُّ بالاطّلاعِ على شيءٍ يَخصُّ الشركسَ فاستفهمتُ بِملامحِ وجهي عن مَغزى ذلك وقالت:

.تعودُ أصولنا إلى شمالِ القوقازِ والشيشانِ وقد هاجرَ قسمٌ منّا إلى البلادِ العربيةِ فأصبحنا جزءاً منها.

.والنّعم منكِ ومنهم.

قلتُ ثم أضفت:

.أنا تعودُ أصولي إلى شمالِ اللاذقية.. قرية باب جنة بعد المعيصرة تماماً.

كانت كلّما ابتسمت تشرقُ شمسٌ جديدة ويصبحُ الكونُ أحلى..

لا أعرفُ كيفَ مضت ساعةٌ ونحنُ نتجاذبُ أطرافَ الحديثِ وكتفي مُلاصقٌ لكتفها لكن حين مَددتُ يدي ووضعتها فوقَ يدها اختفت تلكَ الابتسامة فجأةً وحلَّ مكانها ارتباكٌ جَعلها تبدو أشهى بألفِ مرّة.

بهدوءٍ سَحبت يَدها وقالت إنَّها مُضطرَّة للذهاب.

.متى سألقاكِ مرة ثانية؟ هل يناسبكِ أن نشربَ غداً فنجانَ قهوةٍ في مقهى الصحافة؟

.سأرى إن كنتُ أستطيع.. باي.

في ذلك الزمن، لم يكن بِحوزةِ مُعظمنا هواتف محمولة وكانَ الموعدُ . حتى الوهمي . يستهلكُ من الرجلِ كلَّ ذرةٍ من خيالهِ وترقّبهِ وأحاسيسه.

مضى اليومُ عابقاً بعطرِ ريما وجمالِ ابتسامتها وارتباكِها حينَ لامست يدي يدها فلم يعرف النومُ إليّ سبيلاً إلا عندَ بزوغِ الفجرِ ثمَّ حينَ أيقظني المُنبّهُ قفزتُ بأربعتي كي أذهبَ إلى موعدي المُفترض.

انتظرتُها أمامَ مبنى القسمِ وحينَ أطلَّت كحورةٍ تجرُّ خلفها سرباً من الغيومِ أشعلتُ سيجارة وتأهّبت.

تعمَّدتُ أن أقفَ في مكانٍ غيرِ مُزدحمٍ كي تَراني على الفورِ لكنّها حينَ رأتني تَظاهرت بالعكسِ وتابَعت طريقَها برفقةِ صديقاتِها وحينَ تَجاوزنَني رَمَت باتّجاهي ورقةً مَطويّة.

بِلهفةٍ انحنيتُ وأخذتُ الرسالةَ ثمَّ دسستُها في جيبي مُعتقداً أن الجميعَ ينظرون إلي.

مشيتُ بسرعةٍ إلى حديقةِ كلية الآدابِ وجلستُ على مقعدٍ مُتاخمٍ لشُجيرةِ وردٍ أحمر.

أخرجتُ الرسالةَ المُعطّرة ورحتُ أقرأ بينما قلبي يدقُّ بعنف..

.أحببتُ جنونكَ لكن من المستحيلِ أن أقابلكَ مرَّة ثانية..

في الجامعة عيونٌ تراقبني.. عيونٌ من طائفتِي وقوميتي تمنعنِي من الإقدامِ على شيءٍ كهذا وأنتَ لا تريدُ أن تكونَ سبباً في مشاكل خطيرة قد تحدثُ لي..

أتمنى لكَ السعادة.

بهدوءٍ ورويّة.. مع وخزةٍ في القلب..

أخرجتُ الولاعة من جيبِ معطفي المتواضع وأحرقتُ الرسالةَ ثم أشعلتُ بِلَهبِهَا سيجارة على شرفِ الوحدةِ الوطنية.

_____

## القصّة الغريبة للمُواطن أحمد عبد الوهاب

زجّوهُ في غرفةٍ مَعزولةٍ ذاتَ يومٍ من العامِ الثالثِ للحربِ السوريّة. لا نوافذَ لهذه الغرفة التي كانوا يُطلقون عليها اسمَ (غرفة الذاكرة). قيّدوا قدميهِ ويديهِ إلى أطرافِ السريرِ ثمَّ شعرَ بوخزِ الإبرةِ في جلدهِ وبعدَ دقيقةٍ.. نام.

دخلَ الغرفةَ إثرَ مُدَّةٍ مَجهولةٍ رجلانِ غامضان وقامَا بفكِّ وثاق المواطن أحمد عبد الوهاب عقبَ حقنةٍ غير مُنوِّمة (كما أدركَ فيمَا بعد).

لم يُجب أيٌّ منهما عن أسئلتهِ المُتكرِّرَة المُتعلّقة بطبيعةِ المكانِ وسببِ وجودهِ فيه.

اكتفى الرجلانِ بتسجيلِ مُلاحظاتٍ دقيقةٍ ثمّ ذهبا دونَ أن يعيدا تقييدهُ ومَضت السّاعاتُ والأيامُ على نفسِ الوتيرة.

فقدَ المواطنُ الإحساسَ بالوقتِ نهائيًّا لكنّهُ استطاعَ فيما بعد تقسيمَ يومهِ على الشكلِ التالي:

عندَ الصباح، حقنة بعد الفطار. في الظهيرة، وجبة الغداءِ بعدَ الحقنة. بُعيدَ المساءِ، عشاءٌ قبلَ الحقنة.. ونوم... نومٌ طويل.

لم يكن سجنًا بالمفهومِ التقليديّ أبدًا إذ لم يقدم أحدٌ على استجوابهِ أو ضربهِ أو تعذيبهِ لكن ثمّة من يعبثُ بذاكرتهِ التي تغيبُ تفاصيلها وترفضُ أن تعود.

إثرَ مرورِ زمنٍ طويلٍ جداً بدأ يقولُ كأنَّ شخصاً آخر بُعثَ في أعماقه:

.المؤامرة خارجيّة.

لاحظَ المُراقبونَ التغيّرَ الهام الذي طرأ عليه لكنّ الحذرَ ظلَّ مُصاحباً فواظبوا على الإجراءاتِ ذاتها.

في غرفةِ القيادة، اطّلعَ كبيرُ (الدكاترة) على ملفّهِ باهتمامٍ وقرأ بالتفصيلِ المُستجدّات كافة ثمّ قال:

.لا نريدُ أن يكونَ الأمرُ خدعة.

بابتسامةِ رضا أجابَ المساعدُ المُخلص:

.نحن متأكّدون من الحالة سيادة الطبيب.

صبيحة ذات يومٍ من العامِ السابعِ للحربِ..

وبعدَ أن سجّلَ الأطبّاءُ ملاحظاتهم كافة، أُطلقَ سراحُه.

كانت العبارةُ الوحيدة التي يردّدها المواطنُ أحمد عبد الوهاب في كلِّ مكان، وببلهٍ مُرعب:

.المؤامرة خارجيّة.

ففي قلبِ العروبةِ النابض، قالَ سيّد السجنِ العربي الصميم حينَ أطلقوا سراحه:

.لا وجودَ للمؤامراتِ الدّاخليّةِ كما كانَ يدّعي المواطن.

## تفاصيلٌ عتيقةٌ

أريدُ أن أكتبَ عن سوريا لكنَّ زجاجةَ النبيذِ أوشكت على الانتهاءِ وإنّي خائفٌ من الكلمات.

سأجرّبُ للمرةِ العاشرةِ مع سيجارةٍ جديدةٍ لعّلكِ تقرئين.. وما الفرقُ إن كنتِ لا تفعلين!

غرفةٌ على السطحِ سقفها من توتياء ومطر.

جرَّة غازٍ يُدحرجها أحدهم بقدمهِ على الإسفلتِ المُحفَّر فتتحركُ يداهُ كما لو كانَ يرقصُ مع امرأةٍ من نار..

أنتيناتٌ مُوجَّهة صوبَ البحرِ كي تستقبلَ إشارةَ القنواتِ القبرصية (الزعرة)..

خيماتٌ من القصبِ الذي تتمايلُ أوراقهُ مع كلِّ هبّةِ نسيمٍ فتجعلُ من أوراقِ شوبان مجردَ خربشات

ملعبٌ ترابي وكرة قدمٍ مع شبابٍ في مقتبلِ العمر

شجرةُ خرنوبٍ ثمارها أشهى مع قليلٍ من الغُبار

اجتماعٌ صباحي أمامَ فرنِ الخبز و... سلامات

طلابٌ يقفزونَ عن سورِ المدرسةِ هرباً من حصّةِ الدِّينِ والأفيونِ والشعوب

أوّلُ سيجارةٍ على الطريقِ المُزدحمِ بالعشبِ والزعرورِ صوبَ مقامِ الشيخ قليعة وتلكَ التلّةِ المُطلّة على البعيد..

صلولين

مشكلةٌ عائليةٌ قبلَ الخروجِ في نُزهةٍ ومشكلةٌ عائلية بعدَ العودةِ منها

الإمتناعُ في عمرٍ مُبكرٍ جداً عن مرافقةِ العائلة إلى أيّةِ نزهة

حبّتانِ من السيتامولِ لشفاءِ الأمراض

فيروز

امرأة تشطفُ الشارعَ أمامَ منزلها ونهدها الأبيضُ حينَ يهتزُّ يملأ الكونَ بالألوان

دكانٌ صغيرٌ تفوحُ منهُ رائحةُ التوابلِ والأمنيات المنتظرة

غداً نلتقي

عروسةُ الزعترِ على شاطئِ البحر

نجومٌ قريبة جداً كما لو كانت للقطاف

مشاريعٌ مؤجّلة

نساءٌ يتمشينَ مساءً قربَ (أوتستراد الثورة) فتبدو أردافهنّ دعوةً مفتوحة إلى الإبحار

أصدقاء.... حياة.....

اللعنة على زجاجةِ النبيذ التي فرغت الآن...

# إنسيُّ المصباح

لثلاثينَ عاماً وأنا أحلمُ بمنزلٍ كبيرٍ أعيشُ فيه مُترفاً كما يحلمُ أيُّ موظّفٍ تافه. ذاكَ ليسَ حلمي الوحيد.

كثيرةٌ هي الأحلامُ التي ألجأُ إليها ويشاركُنِي فيها بشرٌ كُثر يستيقظونَ صباحاً ويعودونَ إلى بيوتهم المُستأجرةِ مساءً ليحصلوا في نهايةِ كلِّ شهرٍ على مبلغٍ يُمكّنُهم من دفعِ الفواتيرِ ومُستلزماتِ البقاءِ على قيدِ الحياةِ كالأكلِ والشربِ والثيابِ و.. الإنترنت.

نحنُ من أخبرنا (إسكوبار) الحقيقة الجليّة دون لفٍّ أو دوران:

.لا أحد يصبحُ ثريّاً لأنه يعملُ في وظيفة.

لهذا وغيرهِ من الأسبابِ يعيشُ مُعظمنا في الأحلامِ ولأنَّ الوقتَ المُتاحَ أمامي خارجَ نطاقِ العملِ مَحدودٌ أستغلهُ في بعضِ الأمورِ ومنها.. المشي.

يطيبُ لي مساءً أن أمشي قليلاً في الشوارعِ المُتاخمةِ لمقرِّ سكني الكائنِ على تخومِ المدينةِ الجنوبيةِ الرطبة وذاتَ مرّة، قادتني قدماي إلى ما وراءِ هذهِ الشوارعِ.

في ضاحيةٍ غامضةٍ ومُعتمة، شدَّ انتباهي قصرٌ كبيرٌ لا أثرَ للحياةِ فيه.

وقفتُ أمامَ البوابةِ الضخمة ثمَّ بلعتُ ريقي وأشعلتُ سيجارة.

.ماذا سيحدثُ إن دخلت؟

تساءلتُ بشيءٍ من الخوفِ بيدَ أنّي تذكرتُ كم كنتُ شجاعاً في الماضي البعيد. أخرجتُ هاتفي المحمول ثمَّ بضوءٍ منه شققتُ الطريق..

بخطواتٍ مُتردّدةٍ صعدتُ الدرجاتِ الأمامية ثمَّ دفعتُ البابَ الخشبي بيدٍ مُرتجفةٍ فأصدرَ صريراً حاداً وعادَ إلى الخلف.

كانَ بهو القصرِ فارغاً عن بكرةِ أبيهِ وحين صعدتُ إلى الطبقةِ الثانيةِ ومررتُ على جميعِ الغرفِ تأكّدتُ أن حالها لم يكن مُختلفاً.

.يا للبطر. (طاء وليست ظاء)

قلتُ لنفسي بشيءٍ من السخريةِ ثمَّ أضفتُ لكن بصوتٍ مُرتفعٍ كي أؤنسَ نفسي في خضمِّ الفراغ:

. الناسُ لا تجدُ غرفةً تملكها وصاحبُ هذا المكانِ الشاسعِ هجرهُ دون مبالاة.

قرّرتُ أن أعودَ أدراجي فلا جدوى من البقاءِ أكثر وحينَ هممتُ نزولَ الدرجِ تعثّرتُ بجسمٍ اعتقدتهُ بادئَ الأمرِ حجراً انزاحَ عن جدارٍ ما نتيجة الإهمال.

حينَ سلّطتُ الضوءَ على ذلكَ الشيءِ رأيتُ مصباحاً قديماً كانوا يستخدمونهُ في سالفِ الزّمان.

قصرٌ مهجورٌ ومصباح..

يقولُ علماءُ الفلسفةِ إنَّ المُقدِّماتِ المنطقيةِ تُفضي إلى نتائجَ منطقية لهذا تكونُ تتمة العبارةِ على الشكلِ التالي:

.قصرٌ مهجورٌ ومصباحٌ و..... جنِّي.

الآن، كلّ ما عليَّ القيامُ بهِ نفضُ الغبار كي يخرجَ الجنّي ويحققَ أحلامِي.

أشعلتُ سيجارة جديدة وجلستُ إلى جوارهِ ثم أخذتهُ بيديّ ورحتُ أتأمله.

.يا لهُ من مصباحٍ رائع، لا شكّ عمرهُ ألف عام.

سحبتُ من سيجارتي نفَساً عميقاً وبدأتُ العملَ فراحَ الدخانُ يتصاعدُ من فوهتهِ ليتخذَ في أقلّ من دقيقةٍ هيئة المارِدِ المَعروف.

بعد صمتٍ مريبٍ مشوبٍ بالرهبةِ امتدَّ لدقائق لم يقل الجني:

.شبيك لبيك.. عبدك بين يديك

ولم يقل:

.أنتَ تأمر وأنا أطيع.. أو ما إلى هنالكَ من تلكَ العبارات.. كانَ كلّ ما فعلهُ جني المصباح أن جثا على ركبتيهِ ثمَّ قالَ وهو يحضنني ساكباً من عينيه دموعاً صادقة:

.شكراً لأنّكَ حقّقت أحلامي.

ثمّ اختفى.

## أيّامٌ في البدروسيّة

ثمّةَ قصصٌ تحدثُ في حياةِ الرجلِ مرّةً واحدة. على خلافِ العشراتِ من القصصِ التي يَنساهَا أو يتناسها يستحيلُ عليهِ نسيانُ تلك.

وصلتُ شاطئَ البدروسيةِ أوَّلَ مرّةٍ صيفَ عام **1996**.

عندما استدارَ السائقُ بالميكروباص يساراً إثرَ رحلةٍ من اللاذقيةِ استمرَّت ساعةً وبدا البحرُ في نهايةِ شارعِ السّروِ تذكّرتُ أينَ سأطلبُ منهُ التوقفَ كما أخبرني الخالُ (أبو محمد) عبرَ الهاتفِ حينَ دعانِي لمساعدتهِ في تأجيرِ (الشاليهات) للمُصطافين وصيدِ السمكِ بالأقفاصِ الحديدية.

في تلكَ الظهيرةِ كانَ الشاطئُ شبهَ خاوٍ من الناسِ وأشعةُ الشمسِ تسكبُ فوقَ الموجِ والرمالِ بريقاً ماسياً عجيباً.

وقفتُ فوقَ التلّةِ المُتاخمةِ للطريقِ ورميتُ بصري باتجاهِ (الشاليه) الذي تليهِ أشجارُ الكينا فعرفتُ أنّهُ المقصود.

في خيمةٍ جُدرانها من القصبِ وسقفها الأغصان كانَ الخالُ متّكئاً على سريرٍ خشبي يشربُ المتة ومِن آلةِ تسجيلٍ قديمةٍ يقولُ عبد الحليم حافظ:

(ضِحكت تانِي.. نفسِ الضِّحكة وراحِت ماشية

زيِّ الدنيا ما تِيجي بثانية وتِمشي بثانية)

بعدَ أن رحّبَ بي دعاني للجلوسِ على جذعِ شجرةٍ مقطوعةٍ ذي حلقاتٍ دائريةٍ كثيرةٍ وبعدَ برهةٍ قال:

.لنبني عرزالاً في الحال، يجبُ أن يكونَ لكَ مكانٌ تنامُ فيه.

مع حلولِ المساءِ كانَ العرزالُ جاهزاً بعدَ أن قمنا بثبيتِ الأخشابِ جيّداً ووضعنا فيهِ فرشةً وغطاء.

أثناءَ العمل شرحَ لي الخالُ كيفَ أستقبلُ المُصطافين وأصحبهم بين غرفِ الشاليهِ المزودةِ بالمراوحِ والثلاجةِ والغازِ والأسرَّةِ وجميعِ لوازمِ المطبخِ وبعدها أقولُ لهم السعرَ المُترتبَ عن استئجارها كلَّ يومٍ ففي حال تمّت المُوافقة أستلمُ منهم البطاقةَ الشخصية لربِّ العائلةِ أو من ينوبُ عنهُ وأسلّمهم المفاتيح.

.وبعد؟

سألتهُ فأجاب:

. هذا كلُّ شيء. المُهمُ عندي ألا تكونَ الشاليهُ فارغة فمتى كانَ الزبائنُ يَشغلونها بعدَ دفعِ المالِ يمكنكَ أن تفعلَ ما تريد.

البحرُ من أمامكِ والسمكُ في قلبهِ أمّا النساءُ فأنتَ وشطارتك.

ضحكتُ مع قليلٍ من الحياءِ فأنا لم أكن قد جاوزتُ بعد عامي الرابع عشر بيدَ أنَّ دقّات قلبي عزفت نشيداً لم أعهدهُ من قبل.

كانَ الخالُ بدر ذا ملامح جميلةٍ وطيّبةٍ أمّا جسدهُ فكانَ رياضيّاً نتيجةً لرفعِ الأثقالِ الحديدية والعيش قربَ البحرِ وتأثّراً به رحتُ أرفعُ الأثقالَ وأتمرّنُ كثيراً كي يصبحَ جسدي مثل جسدهِ. في تلك الأيام.. نجحتُ شيئاً ما.

حينَ حلَّ المساءُ كانت إضاءةُ الخيمةِ مصباحاً أصفر تمَّ تعليقهُ على غصنِ شجرةِ الكينا وعن يسارنا كانَ صفُّ الأشجارِ المُتاخمةِ مُعتِماً بالكامل.

في الحقيبةِ الصغيرةِ التي أحضرتها معي ثمَّة بعضُ الملابسِ القليلة جدّاً وكتابٌ لصنع الله ابراهيم اسمه (نجمة أغسطس). لأيّام طوالٍ هناك، كان صديقي الوحيد، تقريباً.

هكذا أصبحَ مقرُّ إقامتي الجديد جاهزاً وبعدَ أن ذهبَ الخالُ لمقابلةِ بعضِ الأصدقاءِ في مكانٍ ما قربَ نبعِ البدروسيةِ صنعتُ لنفسي كأساً من المتة وجلستُ وحيداً.

تفقّدتُ أشرطةَ الكاسيت التي كانت مَرميّةً في كيسٍ بلاستيكي قديم فعثرتُ على خمسةِ أشرطة لأمِّ كلثوم وثلاثةٍ لفيروز واثنين لعبد الحليم حافظ.

انتقيتُ كاسيت (من أجلِ عينيك عشقتُ الهوى) ثمَّ أشعلتُ سيجارة ورحتُ أستمع.

في البحرِ كانت أضواءُ مراكبِ الصيدِ تنعكسُ على الماءِ كالأخيلةِ الغامضة ومن خلفي كانَ جبلُ البدروسية شامخاً زيّنتهُ بعضُ الغيوم التي جلاها القمرُ الصاعد.

(من بريقِ الوجدِ في عينيكَ أشعلتَ حنيني

وعلى دربكَ أنّى رحتَ أرسلتُ عيوني)

تقولُ (سومة) فيجيبها الموجُ بعزفٍ أبدي ساحر.

تتميّزُ الأقفاصُ الحديدية التي تُستخدمُ لصيدِ السمكِ بشكلٍ مُفلطحٍ وبوَّابةٍ دائريةٍ تضيقُ نحوَ الداخلِ فتسمحُ للسمكِ بالدخولِ لكن ليسَ بالخروج.

. بعدَ سنواتٍ أدركتُ دونَ فائدة أنّ الحياة تستخدمُ لاصطيادِ البشر ذاتَ الأقفاص وإن بأشكالٍ مختلفة.

كنّا نضعُ في القفصِ الخبزَ اليابسَ وبقايا الأطعمةِ ثم نعومُ حاملينهُ صباحاً مسافة عشرين متراً ونغوصُ نحو الأعماقِ لنضعهُ في مكانٍ مُناسبٍ قربَ الصخورِ التي تتجمّعُ حولها الأسماكُ وعصراً نعودُ إليه وبعدَ أن نخرجهُ نفرغُ ما فيهِ من سمكٍ أو أخطبوطات أو سلاطعين.

في البدروسية اكتشفتُ أن لحمَ السلطعونِ أشهى بألفِ مرةٍ من باقي اللحومِ وذلكَ بعد أن تشوي السلطعونَ على النارِ قليلاً ثم تكسر الدرعَ الذي يُغلِّفُ جسده وتنتقي اللحمَ الأبيضَ بيديك.

***

## امرأةٌ تستحِم خلفَ الشجر

كانَ تموزُ قد انتصفَ وكنتُ على وشكِ أن أغادرَ عامي الرابع عشر حين أخبرني الخالُ ذاتَ يومٍ أنه ذاهبٌ إلى المدينةِ كي يزورَ زوجتهُ وعلى أبعدِ تقديرٍ سيعودُ ظهرَ اليوم التالي فأوصاني بملازمةِ الخيمةِ البحريّةِ لتلبيةِ احتياجاتِ المُستأجرين إن طلبوها..

خلفَ شاليهات الخالِ وخيمتنا المُتاخمةِ لصفٍّ طويلٍ من أشجارِ الكينا أرضٌ ترابيةٌ مكشوفةٌ لا تتجاوزُ مساحتها المئتي مترٍ مُربّعٍ. في زاويتها الشرقيةِ ثمّة مَقرٌّ بدائي للاغتسالِ أقامهُ الخالُ كي نزيلَ فيهِ عن جسدينا مياه البحرِ المالحةِ بعدَ الصيدِ والسباحة.

وعلى الرغمِ من كونِ مقرّ الاغتسالِ ذاكَ غيرَ مسقوفٍ ومحاط بأحجارِ البناءِ من جهاتٍ ثلاثٍ إلا أن الجهةَ المكشوفة هيَ التي تطلُّ على الخيمةِ لهذا كنّا حريصين على الاغتسالِ بثيابِ السباحةِ وعند تبديلها نتوارى خلفَ الأحجار.

من بينِ أوراقِ القصبِ التي تتمايلُ مع نسيمِ تلكَ الظهيرةِ رأيتُ فتاتين تتجهان صوبَ المَغسل.

نسبةُ ذكائي عادية جداً لكنّ الموقفَ لم يكن بحاجةِ آينشتاين: من المؤكدِ أن الفتاتين اعتقدتا المغسلَ للعمومِ ولأنَّ جهتهُ المكشوفة لا تطلُّ

سوى على الأشجارِ والأعشابِ والقصبِ الذي صنعنا منه الخيمة فقد كانتا مطمئنتينِ إلى حدٍّ كبير.

عدّلتُ جلستي من الاتّكاءِ برأسي وأنا مستلقٍ على راحةِ يدي إلى الاتكاءِ على كوعي الأيسر وشربِ الماءِ الساخنِ في كأسِ المتة دفعة واحدة ثمّ أشعلتُ سيجارة.. بانفعال.

أقصى ما وصلت إليهِ مُخيلتي في تلكَ اللحظةِ أن أرى الفتاتين تغتسلان بسكبِ الماء العذبِ فوقَ جسديهما دونَ نزعِ ملابسهما لكن حينَ وقفت إحداهما على مسافةٍ من المَغسلِ كي تراقبَ الطريقَ ونضت الثانية عنها جلباباً أسود.. ولنصفِ دقيقة تقريباً.. لم أصدّق ما رأيت.

سحبتُ من سيجارتي نفساً عميقاً وجلستُ على سريري الخشبي مُتربّعاً.

إنّه صيفُ عام **1996**.. حين رأيتُ لأوّلِ مرّةٍ امرأةً عاريةً من رأسها حتى أخمصِ قدميها.

كانت المرأة قد أمسكت الجلبابَ من ياقتهِ ورفعتهُ إلى الأعلى على غير استعجالٍ حتى خلعتهُ من فوقِ رأسها ولم تكن ترتدي تحته قطعةَ واحدة من القماش.

كيفَ لي أن أصفَ جسدها الأبيضَ الممشوقَ وارتجاجَ نهديها حين رفعمها الجلبابُ قليلاً ثم عادا إلى حيث يجبُ أن يكونا..

البطنُ سهبٌ خصبٌ وشعرُ العانةِ يتوّجُ مثلثَ فينوس المُطلَّ على فخذينِ غضّينِ مسكوبين بمعجزةٍ إلهية..

انحنت الفتاةُ كي تلتقطَ خرطومَ المياهِ فَبدت مؤخِّرتُها المُكتنزة كسؤالٍ في الامتحانِ مطلعهُ:

.املأ الفراغَ بما يناسبهُ...

ثمّ حينَ راحت ترشُّ الماءَ على جسدها وتفركُ نهديها بيدها أصبحَ الكونُ أجمل.

تخيّل معي..

المَجموعة الشمسية، مجرّة دربِ الحليب، جارتنا الأندروميدا، الثقوبُ السوداء، أعمدةُ الخلق، النجوم النيوترونية الكثيفة، المستعراتُ الكُبرى.. حتى الإنفجارُ العظيم قبلَ مليارات السنين، أصبحَ أجمل وأرجوك، لا تستهن بما يمكنُ لامرأةٍ عاريةٍ أن تفعلهُ.. إيّاك أن تفعل.

.هل تعرفُ لماذا بحثَ جلجامش عن ماءِ الخلود؟

من أجلِ تلك اللحظات..

لم يقف الزمنُ يومها يا صاحبي وعلى عكسِ ما تمنّيتُ، لم تكن صديقتها سوى رفيقة لمراقبةِ الأجواء.

ما أن أنهتِ المرأةُ الاغتسالَ حتى أخرجت من حقيبةٍ بلاستيكيةٍ جلباباً وارتدتهُ على عجلٍ ثم ذهبتا..

***

**يوسف الحمصي**

ذاتَ مساءٍ وكنَّا جالِسَينِ على الرملِ نشربُ البراندي الوطني المغشوش سألت:

.كم امرأةً عرفت في حياتكَ يا خال؟

كبعَ الرجلُ ما في كأسهِ دفعةً واحدةً ثم قال:

.المبتدئونَ أمثالكَ يقومونَ بالعدّ. ثمّ أردف:

. النساءُ على شاطئِ البحرِ . حتى القادماتُ من مناطق مُحافظة . أشهى وأكثرُ حريّة لأنهنّ يُدركنَ قصرَ مدّة إقامتهنّ ويحتجنَ إلى بعضِ الذكريات.

إيَّاكَ أن تلاحقَ امرأة. إن كانت تريدكَ ستأتي من تلقاءِ نفسها.

سادَ صمتٌ إثرَ ذلكَ رحتُ خلالهُ أتأملُ النجومَ الغزيرة ثمَّ تفاجأتُ بشخصٍ غريبٍ يقتربُ وبعدَ أن ألقى السلامَ جلسَ إلى جوارِ الخالِ الذي عرّفَ عنه:

. هذا يوسف، شيخ شبابِ حلب، سيعملُ في المتجرِ المجاورِ لنا طيلة الصيف وهو صديقٌ قديم.

- تشرفنا

قلتُ بعدَ أن سكبتُ لنفسي كأساً من البراندي ثمَّ أشعلتُ سيجارة.

كانَت أضواءُ المراكبِ الصغيرةِ الذاهبةِ إلى الصّيدِ تشعُّ في الأفقِ النائي حين راحَ يوسف فجأة يصدحُ بصوتهِ الجميلِ موَّالاً حلبياً أنهاهُ بعبارة..

- سبحانَ من شقّهُ بلا منشار.

إثر ثوانٍ معدوداتٍ ملأت أصواتُ ضحكنا المكانَ وأزعجت المُصطافين الجالسين على الرمالِ لكن انزعاجهم ما كانَ ليعني لنا شيئاً بوجودِ الخالِ (أبو محمد) فهو دونَ مبالغةٍ رجلٌ بعشرةِ رجالٍ ومصيرُ من سيتعارِكُ معنا الذلّ لا محالة.

حينَ هممنا بالصعودِ إلى مقرّنا البحري كي ننام انطلقَ يوسف مثل سهمٍ وبحركةٍ أكروباتية خطفت أنفاسي استدارَ في الهواءِ وحطَّ واقفاً على قدميه.

لم تبارح حركتهُ مُخيّلتي فطلبتُ منه بعدَ ذلك أن يُعلّمني تنفيذَها وهكذا رحتُ أتمرنُ معهُ حتى أتقنتها.

كلّما رأيتُ جداراً مرتفعاً تسلقتهُ وما أن أقفَ على حافتهِ حتى أقفزَ مستديراً استدارة كاملة في الهواء لأهبط على قدمي.

مساءً كنّا نجتمعُ كلّ يومٍ لنقرعَ الكؤوسَ ونغنّي ما طابَ لنا من مواويلٍ ثم ننهي الوصلة الطربية بالعبارةِ ذاتها..

.سبحانَ من شقّهُ بلا منشار..

يوسف وكنيتهُ الحمصي كانَ أشقر الشعرِ نحيلَ القدِّ رياضياً وقد سبقَ له أن عملَ في لبنان ومصر وليبيا قبل أن يعودَ أدراجه إلى الوطنِ بعدَ أن بدّدَ ما جمعهُ من مالٍ على النساء.

ذاتَ مرةٍ وكنّا نعومُ في البحرِ مساءً قلتُ له..

- ما حكاية عبارتكَ التي تردّدها دائماً (سبحان من شقهُ بلا منشار)؟

ضحكَ بصوتٍ جهوري وقال..

في البدروسيةِ لن يمضي وقتٌ طويلٌ قبلَ أن تعرفَ المعنى العميقَ للعبارةِ يا صديقي.

عندما انقضى ذلك الصيفُ وعدتُ إلى المدرسةِ لم أترك حائطاً من حيطانها إلا وقفتُ عليه ثم قمتُ بالشقلبةِ الهوائيةِ التي علّمني إيّاها يوسف كي أستميلَ الفتيات بجسدي وقدرتي على تطويعِ الهواءِ لكنني في إحدى المرّاتِ تماديت.

كانَ الجدارُ مرتفعاً جداً فسقطتُ على مؤخرتي وتسبّبتُ لنفسي بجروحٍ مؤلمة ما دفعني بعدها إلى التوقفِ عن أداءِ الحركة (السحرية) لكنَّ.. ما زال المعنى العميقَ للجملةِ الخالدة يُغريني باكتشافهِ .. يوماً بعدَ يومٍ، بعد يوم.

***

**أنا سأذكركَ.. و أنت؟**

في الصيفِ التالي من عامِ **1997**، وكانَ الهوا البحري ينسابُ بينَ أوراقِ الكينا على مَهلٍ فتسمعُ لَحناً مِن ذاكَ الذي للهِ درَّهُ ما أعذبه، توقَّفت أمامَ الخيمةِ سيارةٌ كبيرةٌ ترجَّلَ منها شابانِ يرتديانِ جلبابينِ أبيضينِ وبعدَ أن ألقيا السَّلامَ طلباَ للإيجارِ (شاليه) بسعرٍ مقبول.

ساعدتهما في تفحُّصِ (الشَّاليه) فتشاورا مع عائلتهمَا بينما كنتُ أصلّي أن يقبلوا استئجارها فهذهِ العائلة تضمُّ بين أفرادها أجملَ فتاةٍ قابلتها يوماً.

بعدَ أخذٍ وردٍّ لم يَطل قالَ أحدهما:

.موافقون، سنستأجرها لأسبوع.

.على بركةِ الله..

قلتُ وسلَّمتهم مفاتيحها ثمَّ قبضتُ منهم المبلغَ سلفاً وعدتُ أدراجي فصنعتُ لنفسي كأساً من المتَّة عقبَ الجهدِ الذي بذلتهُ ورحتُ أستعيدُ في مخيلتي ملامحَ الفتاة ثمَّ أشعلتُ سيجارة.

.الوجهُ المُدوَّر، العينانِ العسليتانِ الواسعتانِ، الخدَّانِ المُورّدانِ والبشرةُ البيضاءُ النقيّة، الشَّفتانِ المُمتلئتانِ المُزدانتانِ بأحمرِ الشقائقِ.

الحِجَابُ أساءَ للمشهدِ كلهِ فأنا لم أستطع رؤيةَ شعرِها بسببهِ لكن قلتُ لنفسي:

.وكيفَ سيكونُ أيُّها الأحمق..

لا بُدَّ أنهُ مُسترسلٌ ناعمٌ إن لم يصِل بطولهِ إلى خصرها فهوَ على أقلِّ تقديرٍ يُغرّدُ حينَ تَخلعُ الحِجابَ عندَ منتصفِ ظهرها. ثمّ رحتُ أتخيَّلُ منتصفَ ظهرها وهي عارية...

جذبتُ الماءَ الساخنَ ثمَّ أشعلتُ سيجارةً جديدةً وحينَ تمركزت عدسةُ مخيلتي عند مؤخِّرتها الشهية، توقفت.

مكوَّرةٌ، لا هي بالقاسيةِ ولا المترهّلة، عذبة، بضّة..

يا إلهي، أما كانَ من الأفضلِ لو أنّني أضعُ خدّي عليها الآن؟

تفاءلتُ خيراً ثمّ نمت.

استيقظتُ عندَ الفجرِ وقمتُ بجولتي الاعتياديةِ في المياهِ..

كنتُ أبحثُ عن قطعِ الذَّهبِ والفضةِ التي قد تكون ضاعت من أصحابها في المياهِ ثمّ أرجعُ إلى الاستلقاءِ واحتساءِ المتةِ مع التدخين.

طبعاً خلال خدمتي في البدروسية لأربعةِ أصيافٍ لم أعثر ولو مرة واحدة على الذهبِ لكن، عثرتُ على ما هو أثمن.

فجأة.. وبينما كنتُ جالساً أمام خيمتي مرَّت الفتاة أمامي.

التقت عيونُنا. أشرتُ إليها إن كانَ باستطاعتي الاقترابَ فأشارت بإصبعها راسمة حركةً دائرية تعني بها..

.فيما بعد.

.فيما بعد خيرٌ من النفي.. (قلتُ لنفسي)

أشرتُ مرّة ثانية بما معناه:

.متى؟

فوضَعت كفّيها حولَ فمهَا وهَمَست..

.مساءً.

عدتُ لأشيرَ أنَّني سأنتظرها مساءً في مكانِي هذا خلفَ الخيمةِ فهوَ مُستترٌ ولا يستطيعُ أحدٌ ملاحظتهُ فهزَّت رأسها موافقة.

مرَّتِ السَّاعاتُ بطيئةً إلى أن أتَى المساء، وعندما يأتي المساءُ .يا حبيب .تبدو النجوم مثل اللآلِئ ..

أتت معه بكلِّ أنوثتها وجمالها وبعدَ أن سلّمت قلت:

.دخيل الله ما أجملك..

ابتَسمت وشكرتني..

. وأيضاً تشكريني!! أنا من يشكرُ اللهَ والسماءَ والبحرَ والصيفَ على قدومك..

أنا من يشكرُ القدرَ والصدفةَ والمواقيتَ وحركةَ الكواكبِ والنجومِ التي تضافرت كي ألتقي بكِ..

. ما اسمك؟

. نورا..

. عاشت الأسامي يا نورا.. أنا أسعدُ فتىً في العالم لأنكِ تقفينَ قُربي الآن..

. اسمع لا أستطيعُ أن أتأخرَ أكثر..

ثم أردفت بلهجتها الحلبية:

. أحببتُ أنّك تستمعُ لعبد الحليم، وأحببتُ عينيكَ أيضاً.

عادت أدراجَها بهدوءٍ تاركة إيَّايَ غارقاً في دوامةٍ من العطر.

كيفَ لدقائق معدوداتٍ أن تُدخِلَ إلى القلبِ هذا الكونَ من السَّعادةِ والرِّضا؟

كيفَ للحظاتٍ هاربةٍ من مداراتِ الأبراجِ والأفلاكِ أن تقلبَ تاريخَ الفتى رأساً على عقب وتحوّلهُ من كائنٍ جلفٍ إلى طائرِ نورس؟

استلقيتُ على سريري دونَ أن أقدرَ على النوم.. شيءٌ بداخلي كانَ يقول:

.عِش هذه اللحظات، إيَّاكَ والنوم..

الوقتُ بدونها أصبحَ ثقيلاً..

كنتُ أنتظرُ خروجها لأستنشقَ الهواءَ المُحمَّل بعطرها، نتحاورُ بالعينينِ وحين أغمزها تبتسم...

(ونظرة من بعيد لبعيد تقول حبيت)..

يا الله ما أجمل تلك الابتسامة..

أريدُ أن أقابلها قبلَ أن يحينَ موعدُ مغادرتهم.. أريدُ أن ألمسَ ذلكَ الجسد، أن أقبّلَ تلك الشفتين، أن أحصلَ على ذكرى منها ولا يمكن لي أن أقنعَ بالكلام فقط.

قبلَ موعدِ رحيلهم بيومٍ واحدٍ كنتُ أدخِّن حين سمعتُ حركشةً خلفَ خيمتي فانتفضتُ والأملُ ينفجرُ داخلي كالبركان..

هرعتُ إلى مكانِ لقائنا الأول فكانت هناك..

وقفتُ قبالتها ورحتُ أنظرُ في عينيها دون أن أنطقَ بكلمة..

ضممتها إلى صدري فلم تمانع وراحت تمسحُ بيدها على وجهي..

قبَّلتها فوقَ عنقها فلم تمانع، وضعتُ يدي على مؤخِّرتها وعصرتها فكادت تصرخُ وحين أمسكتُ نهدها تراجعت إلى الوراء بسرعةٍ لكنني حظيتُ بكمشةٍ منه..

ما أروعَ ملمسهُ حتَّى من فوقِ الثياب..

قالت:

.إن فعلتَ ذلك مُجدَّداً سأذهب..

.لن أفعلَ أعدك..

ثم اتخذنا من الأرضِ مجلساً دون أن أعرفَ ما الذي سأقوله، ولا هي قالت.

فجأة اقتربت مني وتركت قبلة فوقَ شفتي هامسة...

. لا فكرة عندي كيف أحببتكَ ولم أعرفكَ إلا لساعات، كانَ الحديثُ مع عينيكَ جميلاً.

أنا سأذكرك دائماً.. وأنت؟

أشعلتُ سيجارة وقلت:

.ذاتَ يومٍ سأكتبُ عنكِ قصّة.

***

**العاصفة والقاربُ الموشكُ على الغرق**

بعدَ مغادرةِ نورا بأسبوعين أو ثلاثة سمعتُ صراخاً يقول:

.قاربكم يغرَق.. قاربكم يَغرق..

انتشلتُ نفسي بشقِّ الأنفاسِ من حلمٍ رائعٍ أجسِّدُ فيهِ دورَ البطولةِ مع الفنانة باميلا أندرسون فوقَ سريرها الرحبِ وحينَ أصبحتُ قادراً على التمييزِ أدركتُ أن الصوتَ الذي يصرخُ هو صوتُ يوسف وليسَ صوتها.. للأسفِ الشديد.

لقد حلَّت طلائعُ المساءِ منذ دقائق على الأرجح.

.الَّلعنة، ما الذي يقولهُ هذا الأبله؟ وكيفَ سيغرقُ القارب؟

رحتُ أتساءَلُ وما زلتُ مُستلقِياً على الإسفنجةِ الرَّطبة.

من بينِ أوراقِ الشَّجرِ طالَعتني بَعضُ الغيومِ الدَّاكنةِ ثمَّ بَدأ جسدي يشعرُ برشقاتِ الرّياحِ الغربيَّةِ القويَّةِ والباردَة .

أخيراً استعادَ عقلي مَا جرى قُبيلَ غَفوتي بِسَاعة.

أحدُ المُصطافين جاءَ إلى حيثُ كنتُ جالساً على الشاطئِ وطلبَ أن يستأجرَ القاربَ الصَّغيرَ لساعتينِ أو ثَلاث.

دفعَ المبلغَ المُستحقَّ ثمَّ ساعدتهُ في النزولِ إلى البحرِ وحينَ عدتُ إلى الكوخِ استلقيتُ على فراشِي غيرِ الوثيرِ وغَفوتُ لِيكرِمَني المَنَامُ بمهبلِ باميلا الوردي.

قفزتُ بأربعتي ونزلتُ السُّلمَ كالمجنونِ فرأيتُ الطقسَ قد انقلبَ كلِّيَّاً وبوادرُ عاصفةٍ تلوحُ في الأفق.

أشارَ يوسف إلى تجمُّعٍ صخريٍّ يبعدُ عشرينَ متراً عن الشَّاطِئ .

كانت أضواءُ المحلَّاتِ والمقاهِي تتيحُ رؤيةَ القاربِ والأمواجُ تتقاذفهُ مع مِجدافيهِ الَّلذينِ يُلوِّحَانِ في الهواءِ كيدِي شَخصٍ على وشكِ الغرق.

.ابنُ العاهرَة، ابنُ العَاهِرَة، ابنُ العَاهِرَة..

كانَ هذا كلُّ ما قلتهُ وأنَا أندفعُ كالمجنونِ مُحتارَاً بالسَّببِ الذي دفعَ النَّذلَ إلى تركِ القاربِ هناكَ كي تبتلعهُ المياه.

قذفتُ بِجسدي إلى الماءِ ورحتُ أسبحُ صوبهُ مُتجنِّباً كُتلةَ الصُّخورِ التي أحفظُ أمكِنَتَهَا عن ظهرِ قلبٍ فهي مكانُ صيدِنا المُفضَّل.

لم يكُ ارتفاعُ المُوجِ ما أزعجَني بل قوَّةُ التيَّارِ والرِّياح .

اقتربتُ رويداً رويداً منَ القاربِ، وكي لا يصطدمَ رأسي به غصتُ على الفورِ مُتلمِّسَاً بيدِي الطريقَ المَائِيَّ أَمامي وحينَ أَحسستُ بجسدِ القاربِ تَشبَّثتُ بِهِ وأخرجتُ رأسي منَ البَحر.

بيدينِ ثابِتَتَينِ رفعتُ جسدِي لكنّ المجدافَ الذي كانَ يَضربُ الهواءَ كيفمَا اتَّفَق بفعلِ التَّيّارِ أصَابني.

سقطتُ في الماءِ مِن جديد وحينَ تذوَّقتُ لزوجةً حلوةً ممزُوجَةً بالملحِ أدركتُ أنَّ الدِّماءَ تَسيلُ مِن رأسي.

شتمتُ ابنَ العاهرة بِغيظٍ أكثر وبقيتُ مُمسِكَاً بجسدِ القارب .

كانَ المساءُ قد حلَّ تمامَاً وَبدأت قطراتٌ من المطرِ تسقطُ تباعَاً ولم يبقَّ لي كي أستطيعَ الرُّؤيةَ سوى القليل ممَّا ترسلهُ أضواءُ المقاهِي .

تَشبَّثتُ بحافةِ القاربِ مُنتبهاً لحركةِ المجدافينِ ثمَّ بقفزةٍ واحدةٍ أصبحتُ داخله.

أمسكتُ المجدافين بقوّةٍ وبدأتُ تعديلَ المسارِ بعيداً عنِ الصُّخور .

زادَ ارتفاعُ المُوجِ مع ازديادِ هبوبِ الرّيَّاحِ ما جعلني أتخبَّطُ يُمنةً ويُسرى لكنَّ المطرَ كانَ لَطيفاً فتوقَّفَ على حينِ غرّة.

بعدَ أن أصبحتُ على مسافةٍ آمنةٍ داخلَ البحر عَدَّلتُ الاتجاهَ أفقياً مُبتعدَاً عنِ المكانِ الذي تركَ فيهِ المُصطَافُ الحقيرُ قاربي وفرَّ هارِبَاً مع أوّلِ موجةٍ عَاليةٍ (كمَا حلّلتُ الأمر) .

عندما غدوتُ قُبالةَ المنطقةِ الرَّمليةِ من الشَّاطِئِ .والتي أحفظها أيضاً عن ظهرِ قلب .كان عليَّ الرُّجوعُ بِسرعة.

هَكَذا.. رحتُ أجدِّفُ بطريقةٍ لا تسمحُ للموجِ بالولوجِ وكلَّما اقتربتُ من الشَّاطئِ زادَ قلقي وخوفي من اصطدامٍ عنيفٍ لكنَّ اصطدامَ الخَشبِ بالرَّملِ خيرٌ وأحبُّ إليَّ بألفِ مرَّةٍ من الاصطدامِ بالصَّخرِ.. وهذا ما كان .

لمحتُ خيالَ يوسف في العتمةِ وهو مُسرعٌ باتّجاهِي وحينَ نزلتُ كي أدفعَ القاربَ خارجَ المياهِ كانَ قد باشرَ الدَّفعَ من الطرفِ الآخرِ فواصلنا حتى أصبحَ القاربُ في مأمنٍ على الشَّاطِئ.

ارتميتُ فوقَ الرّمالِ المُبلَّلةِ لاهثاً لخمسِ دقائق دونَ أن تكونَ لي القدرةُ على النُّطقِ بِحرفٍ واحد.

.قمتَ بعملٍ رائعٍ أيّها البحّار.

قالَ يوسف مازحاً وهو يَربتُ على كتفِي بينمَا كُنَّا مُتَّجِهينِ صوبَ الكُوخ.

هدأت وتيرةُ الرِّياحِ وبدأت غيومُ العاصفةِ المُفاجئةِ تَختفي لتحلَّ مكانَها نقاطُ ضوءٍ صغيرةٌ قادمة من بدايةِ الزمان.

في الكوخِ عاينتُ مكانَ الجرحِ الذي أحدثتهُ ضربةُ المِجدافِ ثمَّ وضعتُ فوقهُ بعضَ العرقِ لتطهيره.

أخذتُ حمَّاماً سريعَاً وارتديتُ مَلابِسَاً مناسبة لتدفِئَنِي ثمّ اتخذتُ مجلسي أمام كوخنا البَحريّ بعد أن صَنعتُ لنفسي كأساً ساخناً مِنَ المتَّةِ شربتهُ مع سيجارةٍ لذيذةٍ ومِن خلفِ جبالِ البدروسيةِ بدأَ القمرُ رِحلتهُ الأسطورية.

**

**تاكوين وأماندا**

عندما كانَ إقبالُ المُصطافين على استئجار (الشاليهات) في البدروسية يضعفُ لسببٍ ما، كانَ (أبو محمد) ينطلقُ إلى منطقةِ (رأسِ البسيط) المجاورة كي يلتقطَ الزبائن وذات يومٍ رأيتهُ قادماً صوبَ الشاليه بصحبةِ رجلٍ وامرأةٍ شقراوين أجهلُ تماماً كيفَ أقنعهما بمرافقته.

كانَ أيُّ أجنبيّ في البدروسيةِ مثارَ دهشةٍ للمصطافينَ ولنا نحنُ الذينَ نعملُ هناك فخرجتُ من خيمتي لأعاينَ الوضعَ وبعد أن شرحنا بإنكليزيتنا الركيكة تفاصيلَ الإيجارِ للسائحِ وكانَ اسمهُ (تاكوين) وافقَ على الدفع ثمَّ أصبحَ مع صديقتهِ (أماندا) ضيفينِ عندنا وإكرامُ ضيفةٍ مثل أماندا يكونُ بمضاجعتها ثلاثَ مرّاتٍ في الليلةِ الواحدةِ لكن هيهاتَ أن ألفتَ انتباهها أنا الفتى الذي بالكاد تبدو لحيتهُ عن مسافةِ أمتارٍ قليلة.

أيُّ حظٍّ هذا الذي أرسلها مع تاكوين..

. هل من الممكنِ أن يستفقدهُ الرفيقُ الأعلى . على سبيلِ الحظِّ . فتصرخُ هيَ طلباً للنجدة؟

قلتُ لنفسي ورحتُ أتخيلُ كيفَ سأهرعُ إليها لكن.. بعدَ فواتِ الأوان.

أجسُّ نبضهُ القذر فلا أشعرُ بشيءٍ وبعدَ دقيقةِ صمتٍ أخبرها أنهُ غادرَ إلى الجحيمِ ثمَّ أضمُّها إلى صدري حتى ألتصقَ بنهديها اللذينِ ما كانا بحاجةٍ إلى حمّالةِ صدرٍ كي يشرئبا مثلَ جرمينِ منيرينِ في سماءِ الكوكب الدريّ في الأفقِ.

طبعاً.. لم يمت ابنُ الإنكليزيةِ وبينما كانت ترضعُ لهُ ليلاً كنتُ أنا سهراناً أمامَ النارِ التي أشعلتها على الشاطئ أدخّنُ وحيداً، كئيباً، (مشغول البال وحزين).

صباحاً.. توجّهتِ الفتاة وصاحبها إلى البحرِ ليسبحا.

كانت أماندا الرائعة ترتدي (البكيني) ولمن لا يعلمُ طبيعة سواحِ البدروسيةِ فجلّهم من المُحافظينِ المتدينين الذينَ تسبحُ نساؤهم مرتدياتٍ ملابسَ الخزانة.

خمسُ دقائقٍ كانت كافية كي تجتمعَ أمّة (الاحتشام) في المكانِ الذي تعومُ فيه أماندا.

عندما شاهدَ الخالُ مَا حدثَ انفجرَ ضاحكاً وطلبَ منّي أن أنزلَ القاربَ الصغيرَ إلى الماءِ كي أصحبها في نزهةٍ بحريّةٍ بعيداً عن عيونِ المُفترسين الذينَ تحلّقوا حولها.

نظرتُ إليهِ ببلاهةٍ وقلت:

.كيفَ سأدعوها إلى الإبحارِ معي وصاحبُها بِرفقتها؟

أكّد الخالُ أنني غشيمٌ في هذه الأمورِ وأنَّ الأجانبَ لا تعنيهم هذه التفاهات.

اقتنعت.

أنزلتُ القاربَ إلى الماءِ ثمَّ بدأتُ التجديفَ صوبها وما أن دعوتها إلى الصعودِ حتى وافقت على الفور.

مددتُ يدي كي أساعدها فلمستُ بأطرافِ أصابعي أطرافَ نهدها الرجراج.

رميتُ نظرةً صوبَ المكانِ الذي يجلسُ فيه الخال وقلتُ متمتماً:

.روح يا شيخ.. الله يوفقك دنيا آخرة.

كانَ صدرها الطيبُ إسفنجياً لا هو بالطري ولا القاسي جداً ونظراً لتجربتي النسائيةِ المتواضعة في تلكَ المرحلةِ توتّرت أموري على الفورِ والحمدلله، كنتُ ارتدي سروالاً قصيراً فضفاضاً وإلّا لتحولتُ إلى مادةٍ للسخريةِ أمامَ هذه السيدة الإنكليزية النبيلة.

ساعةٌ من الزمنِ مرّت وأنا مع أماندا في عرضِ البحر.

النسيمُ البحري يداعبُ شعرها الأشقرَ وهي تتأملُ الأمواجَ الرقراقة بينما كنتُ سارحاً في الأزرقِ الساطعِ من عينيها أقولُ بصوتٍ متلهف:

(لو أنّي لو أنّي بحّار

لو أحدٌ يمنحني زورق

أرسيتُ قلوعي كلَّ مساء

في مرفأ عينيك الأزرق)

طبعاً لم تفهم أماندا شيئاً ممّا قلتهُ وبالتأكيدِ لا تعرفُ من هو نزار قباني وبنسبة 99% لم يعنِ لها شيئاً ذلكَ اليوم. آه يا أماندا لو تعلمينَ كم عنى لي.

استيقظتُ في اليومِ التالي وكلّي توقٌ لمشوارٍ بحريٍّ جديدٍ معها لكنَّ أماندا وصديقها كانا قد غادرا.

قلتُ للخالِ بانفعال:

.ألم تحاول إقناعهما بالبقاءِ حتى لو مجّاناً؟

فراحَ يسخرُ منّي متهماً إيّاي بالعشق.

وأنا، بالفعلِ كنتُ عاشقاً لأجملِ نهدين مرّا عبرَ العصورِ البحريةِ، صاحبتهما فتاة بريطانية، أبحرتُ معها صدفة قربَ شاطئ البدروسية..

***

## طعمُ الفرح

بعد أماندا كانت الأيامُ تمضي ببطء.

ظهيرةَ كُلِّ يومٍ تقريباً، كنتُ أستلقي في العرزالِ بين أغصان الشجرِ واضعاً ساقاً على ساقٍ أدندنُ مع عبد الحليم..

( الهوى هوايا أبنيلك قصر عالي..)

ثمَّ أمدُّ يدي خارجَ الخيمةِ العاليةِ لأنفضَ رمادَ السيجارةِ بينما تسكبُ نسيماتُ بحرِ البدروسيةِ فوقَ جسدي نبيذَ غوايتها الساحر.

في ذلك الصيف كان قد مرَّ على مجيئي خمساً وثلاثين يوماً لم أزر خلالها اللاذقية مكتفياً بالأخبارِ التي ينقلها الخال بعد زياراته المتقطّعة لرؤيةِ أسرتهِ أو لإحضار بعضِ الأشياءِ الضروريةِ من المدينة.

في ذلك العرزال كانَ الكسلُ يتسلَّلُ إلى النفسِ بِلذَّةٍ عجيبةٍ حتى يتحوّلَ من خطيئةٍ إلى حكمة.

لساعاتٍ أستلقي هناك وحينَ يغلبني الهوا الغربي أستسلمُ للرقاد وذات يوم..

كنتُ غافياً حينَ سمعتُ صوت الخال فمددتُ رأسي من بينِ أوراقِ الكينا وقلت..

.إن كنتَ أيقظتني من أجل العملِ فسأتركُ البدروسية وأعودُ إلى المدينة.

كانَ أبو محمد يصلحُ شبكة الصيدِ ودونَ أن ينظرَ إليَّ قال:

.والدكَ يريدُ مُحادثتكَ عبرَ الهاتف.

كانَ الهاتفُ المقصود والوحيد في منطقتنا هو هاتفُ جارنا (أبو علي) فأنَا والخال لم نكن نملكُ هاتفاً وفي الحقيقة، لم نكن نملك شيئاً سوى أقفاصِ صيدِ السمكِ وبعضِ الشِّباكِ ومسجلة كاسيت قديمة جداً.

- ماذا يريد؟

قلتُ وأنا أتثاءب.

- ومنذ متى أعملُ سكرتيراً عندكَ وعند الذي خلّفك؟ اذهب وكلمه.

نزلتُ السّلمَ الخشبي بتثاقلٍ وتوجهتُ إلى شاليهات جارنا الوحيد ثم طلبتُ الرقمَ وحين أجابَ والدي سألتهُ عمّا يريد فقال..

- مبروك.. 258 من أصل 290 علامة. لكن الأملَ كانَ أكبرَ بحصولكَ على علاماتٍ أعلى.

أغلقتُ السّماعةَ في وجهِ أبي المُتأملِ وعدتُ أدراجي إلى الخيمة فأعددتُ كأساً من المتة وأشعلتُ سيجارة ثمَّ انتابني شعورٌ رائع.. إنه الفرح أن تعيشَ مع ستةِ أشخاصٍ في غرفةٍ واحدة وتنالَ مثل تلك الدرجات في امتحانِ الشهادة الإعدادية حدثٌ عظيم..

أخبرتُ الخالَ بحصيلةِ علاماتي فقال إنه كانَ يعرفُ بيدَ أنه أحبَّ أن أسمعها من أبي ثمّ أضافَ وهو يسوّي آخر الخيوط المتشابكة..

- بالنسبة لفتىً يعيشُ مع أبيهِ وأمّهِ وأربعةِ أشقاء في غرفةٍ واحدة، علامتك هذه معجزةٌ بحدِّ ذاتها.

قلت..

- عليكَ أن تخبرَ أبي بذلك، كان يطمحُ لعلاماتٍ أعلى.

- ومن يحسبكَ؟ آينشتاين؟

- ربّما ابنُ آينشتاين.

ثمَّ غرقنا في نوبةٍ من الضحك..

- بهذهِ المناسبة أنا أدعوكَ إلى وليمةٍ سَمك.

- وأنا قبلت.

هكذا.. توجَّهنا. الخال أبو محمد وأنا. إلى البحرِ نحملُ الشباكَ وعدنا عصراً بصيدٍ طيب.

عند المساء أوقدنا ناراً وبعدَ أن فرغنا من شيّ السمكِ كبعنا ما تيسر لنا من كؤوسِ الويسكي الوطنية المغشوشة ثمّ غفونا فوقَ شاطئٍ مُذهلٍ من الرمالِ والوعودِ المُنتظرة.

***

**الفتاةُ ذاتُ العينينِ الخضراوين**

في أواخرِ صيفٍ أمضيتهُ هناك من عام **1998**، كانَ لونُ البحرِ شديدَ الزرقةِ وزبدُ الموجِ يحيكُ فوقَ الماءِ قمصانَ غوايةٍ للنساءِ الحالِمات وكنتُ مُستلقياً في ظلّ خيمةِ القصب والنخيل حين سمعتُ جلبة مصحوبة بالهلع.

حينَ نظرتُ باتجاهها رأيتُ امرأتين وعصبة من الأولادِ الصاخبين يشيرونَ صوب البحر.

بعدَ أن أدركتُ خلال ثوانٍ ما يجري قفزتُ في الماءِ وسبحتُ نحو الغريق.

الأيامُ الطوالُ التي عملتُ فيها قرب البحرِ علمتني بعضَ الأساسياتِ المتعلقة بإنقاذ الغريقِ ومن أهمّها إمساكهُ من شعرهِ وضربهِ إن لزمَ الأمرُ حينَ يحاولُ التشبُّثَ بكَ لأنك إن تركتهُ يفعل قد تغرق معه.

بعدَ أن تمسكهُ جيداً من شعرهِ أو من تحتِ إبطهِ تبدأ طريقَ الرجوع عائماً على ظهركَ باتجاه الشاطئ وهذا ما فعلتهُ حيث ساعدتني القوى المنهارة للغريقِ على التحكمِ بجسدهِ.

بعدَ أن أصبحنا فوقَ الرمالِ قذفَ من فمهِ سائلاً أصفر ذا رائحةٍ مقززة لكنهُ ما لبثَ أن استعادَ وعيه ولم يحتج إلى الإسعافِ أو الذهابِ إلى المستشفى.

انهالت فوقَ رأسي دعواتُ الأمّ التي كادت تُفجع بولدها حتى شعرتُ بالخجل مؤكداً لها أنّ أي شخصٍ آخر كان ليفعل ما فعلته.

أمّا المرأة الثانية فلم تكن سوى فتاةٍ في ريعانِ الصبا اكتفت بالنظرِ إليَّ بعينينِ ممتنتينِ وابتسامةٍ آسرة. كانَ شعرها مسترسلاً حتى منتصفِ ظهرها وعيناها لشدةِ اخضرارهما كادتا تتحولان إلى جنَّتين تجري فيهما الأنهار.

ساعدتُ الفتى على النهوضِ وإيصالهِ إلى مقرّ إقامة أسرتهِ في الشاليهِ المُستأجرِ ورفضتُ رفضاً قاطعاً أن ألبّي دعوة العائلة للجلوسِ مهنئاً إيّاهم بسلامة الفتى.

كم هو رائعٌ ذاكَ الشعورُ الذي ينتابكَ حينَ تسدي الآخرين صنيعاً دونَ أن تنتظرَ مقابل.

تنشطتُ بعد مغامرتي تلك ثمَّ جففتُ نفسي وقمتُ بتسخينِ الماءِ لأحتسي كأساً من المتةِ مع سيجارة.

نزلتُ البحرَ عصراً لأخرجَ أقفاصَ صيدِ السمك وبعد أن أفرغتُ محتواها قمتُ بتلقيمها مرة أخرى وأعدتها إلى مكانها في القاع.

زارني بعد ذلك صديقي المجنون يوسف فتسامرنا قليلاً وأخبرته أن الخال بعد أن غدوتُ خبيراً هنا زادَ من زياراته الكثيرة إلى المدينة كي يرى زوجته.

استأذنَ يوسف بعد ذلك فقد كانَ على موعدٍ مع صاحبته وقبل أن يبتعدَ كثيراً قال:

. إن سمعتَ صراخاً هذه المرة لا تأتي لتنقذ أحداً يا (بطل)، الأمرُ مختلفٌ هنا..

أطفأتُ مصباحَ الخيمة ونويتُ تدخينَ سيجارة ما قبل النوم لكنَّ حركشة من خلفِ القصبِ نبّهتني. في البدايةِ حسبتها أفعى فانتظرتُ بتوترٍ ذهابها من تلقاء نفسها لكن الحركشة استمرت وقويَ صوتها فانتابني القلقُ وقفزتُ بلمحِ البصرِ لأعاينَ الوضع.

بين الأعشابِ المُتاخمة لخيمتي البحريةِ كانت الفتاةُ ذاتِ العينين الخضراوين تِقفُ راجفة.

لا أنكرُ أن قلبي قفزَ من مكانهِ وعرَّج إلى سدرةِ المنتهى ثم عادَ بطرفةِ عين.

.ما الذي تفعلينه هنا؟

سألتها بهمسٍ مرتبكاً وأنا أقف قبالتها مستنشقاً ذاكَ العطر الذي يضوعُ من جسدها ممزوجاً بالعرقِ فلبعضِ النساءِ عَرقٌ شذاهُ أزكى من كلّ العطورِ التي صنعتها وستصنعها باريس.

.لا أعرف..

أجابت بخوفٍ وارتباك أيضاً.

.كم عمرك؟

.بعدَ أسبوعٍ أتمُّ الرابعة عشر.

وقعَ الرقمُ على مسمعي كالصاعقة. كانت مزيجاً مرعباً ورائعاً من الطفولةِ والأنوثةِ والجمال.

. هل أطردها من هنا بحزمٍ أم ألبّي دعوتها الجارفة وشبقها الساطع؟

كانَ الملاكُ المتربعُ فوقَ كتفي الأيمن يأمرني بطردها أمّا الملاكُ المتربعُ على كتفي الأيسر فراحَ يقنعني أنَّهُ ما من ضيرٍ في مضاجعتها مع الأخذِ بعينِ الاعتبارِ مسألة عذريتها وكان من بين ما قاله:

.هي من أتت أليكَ بملئ إرادتها..

كانَ الملاكُ الأيسر مُسلحاً بشوكةٍ ذاتِ رؤوسٍ حادة ومُقنِعة استقرَّت في قلبِ الملاكِ الأول وانتهى النقاش.

أمسكتُ الفتاة بيدها وأدخلتها الخيمة.

كانت خيمتي مُزودة بفراشٍ غير وثيرٍ ودمجانةٍ من عرقِ التين أشربُ منها بين الحين والحين وفي الزاوية طاولة خشبية مهترئة فوقها أضعُ الكؤوسَ والمُسجل العتيق.

أشعلتُ سيجارةً وأنا أجلسُ إلى جوار هذه المعجزةِ غير مصدقٍ أنها قربي وأنها أتت بملئ إرادتها.

لم يكن إنقاذي لأخيها من الغرق خارقاً للعادة لكن المراهقات ميّالات إلى المبالغةِ ويبحثنَ دائماً عن بطلٍ حتى لو كانَ في الأحلام.

كان عنقها في تلكَ الأثناء يبدو كصفحةِ نورٍ تتلألأ فوقها أخيلةٌ من زمنٍ بعيد فاقتربتُ منه رويداً رويداً وقبل أن تلامسهُ شفتاي نفختُ

دخان السيجارة كما لو كنتُ أهمسهُ حتى ولجَ قلبَ القميصِ الأبيضِ الذي كانت ترتديه واستقرَّ قاب قوسين أو أدنى من نهديها العبقريين.

بعدها، وبطريقةٍ لا يمكنُ وصفها، نظرت الفتاة إليَّ بعينينِ مُتوسِّلتين.

أنا لستُ كازانوفا لكنني خبيرٌ نوعاً ما بتلك النظراتِ وأعرف ما الذي تريدهُ المرأة عندما تصلُ إليها لذا سحقتُ عقبَ السيجارةِ وبرويةٍ ساعدتها في خلعِ ثيابها.

قالت الفتاة وهي تهمُّ بالرحيل:

.هذا أجملُ يومٍ في حياتي ثمَّ طبعت على شفتي قبلة.

حينَ استيقظتُ صباحاً تعمّدتُ المشي أمامَ مقرّهم لكنه كان خاوياً.

غادرت أسرةُ الفتاةِ مرةً واحدة وإلى الأبد.

لعلَّ حادثَ الغرقِ ساهمَ في اتخاذها القرار بسرعة.

كان لون البحر في ذلك النهارِ باهتاً أمّا غيوم الخريفِ فبدأت تزحفُ كأفعى فوقَ رمالِ السماءِ الداكنة.

وكما قلتُ لكم من قبل..

ثمّةَ قصصٌ تحدثُ في حياةِ الرجلِ مرّةً واحدة. على خلافِ العشراتِ من القصصِ التي ينساها أو يتناسها،

يستحيلُ عليهِ نسيانُ تلك.

***

استشهدَ الخالُ بدر (أبو محمد) في الحربِ السوريّة صيف العام **2018** بعدَ أن تطوعَ للخدمةِ في الجيش العربي السوري طوالَ سبعِ سنين.

## بلادٌ لا تعرفُ إلى أين

. كانت البلادُ قبلَ الحربِ مزرعةً تسودها بعضُ القوانين التي تنطلي بسهولةٍ على الغالبيةِ العظمى منَ الفقراءِ والمساكين لكنّها بعد الحربِ أصبحت حظيرةً تعمُّها الفوضى التي انطلت بسهولةٍ أيضاً على الغالبية العظمى من الفقراء والمساكين.

سحقَ ابراهيم عقبَ سيجارتهِ في منفضةِ الرمادِ وانتظرَ من صديقهِ أيّ تعقيبٍ لكنه لم يفعل واكتفى بالبحلقةِ في السقف فما كان من ابراهيم سوى أن نهضَ متجهاً صوبَ المطبخ ليجدِّدَ كأسي المتة ويسخّنَ الماء.

حين عادَ إلى الغرفةِ كانَ كلّ شيءٍ على حالهِ فمن حاسوبهِ المحمول ما زالت فيروز تخبرهُ كم دارهم حلوة ومن منقلِ الجمرِ الذي يتوسط الغرفة ما زالَ (التمز) متقداً ويمنحهما دفئاً شهيّاً أما صديقهُ الأبله فظلَّ مبحلقاً في السقف.

استسلمَ لرغبةِ غياث في الصمتِ وأشعلَ سيجارةً جديدة بعدَ أن سكبَ في الكأسينِ ماءً ساخناً ثمَّ شربَ السائلَ اللذيذ.

.البحثُ عن المالِ صعبٌ وعن وطنٍ أصعب لكنّ البحثَ عن الذاتِ في قلبِ هذا الجحيم من الفوضى يبقى الأصعب.

قال غياث كاسراً حاجزَ عتمِ الكلامِ الذي أسدلهُ مذ جاءَ زائراً في قلبِ الليلِ البهيمِ رغم الطقسِ العاصف ثمّ أضاف:

.طُلِبتُ إلى الاحتياط.

لم يكن غياث مُدُخِّناً لكنهُ في تلكَ اللحظة، طلبَ سيجارة.

قبلَ قليلٍ كانَ السأمُ سيّدَ الموقفِ بيدَ أن القلقَ أصبحَ السيّدَ الآن وكانَ مُشبعاً، بالخوف.

.لطالما تلاعبَ الخوفُ من المجهولِ بحياةِ البشر.

من حظِّ ابراهيم أنه وحيدُ أبويه فلم تُشكّل الخدمة الإلزامية بالنسبة إليهِ همّاً لكنهُ يدركُ من خلالِ أحاديثِ أقربائهِ وأصدقائهِ كم هو الموضوع.. مُعقّد.

بعدَ أن عبَّ آخرَ نفسٍ منها سحقَ غياث عقبَ سيجارتهِ في منفضةِ الرمادِ وانتظرَ من ابراهيم أي تعقيبٍ لكنه لم يفعل واكتفى بالبحلقةِ في السقف.

خطأ تقني في الحاسوب القديم جعلَ أغنية فيروز تعيد نفسها في كل مرة.. (بتشوف بكرا بتشوف شو دارنا حلوة)

.أنتَ تحسبني خائفاً من الموت.

قال غياث وهو ينظرُ في عيني ابراهيم ثمّ أضاف:

. ربما.. لكنّ خوفي الأكبر هو من الموتِ عبثاً دونَ أن تصبحَ هذهِ البلادُ أفضل. خائفٌ من الموتِ دونَ أن نتمكّن من تغييرِ اتحادٍ رياضي على سبيلِ المهزلة...

ثم عادَ إلى صمتهِ الأول.

في الخارج، كانت العاصفةُ مُستعرة والبلادُ تسيرُ لكن، دون أن تعرفَ إلى أين..

_____

# العزفُ حرام

علبةٌ معدنيةٌ صَدِئة، أربعةُ أشرطةٍ كهربائية مُثبّتة على قطعةٍ خشبيةٍ صغيرةٍ وأربعةُ مسامير. هذا كلُّ ما احتاجَه كي يصنعَ آلةً موسيقية.

على سريرهِ جلسَ وتحلَّقَ حولهُ الرفاق في استراحةٍ قصيرةٍ منَ الحربِ السوريةِ الطويلة. في البدءِ، اعتقدَ أصدقاؤهُ أن عليَّاً يمزح، لكنه لم يكن يفعل.

أشعلَ سيجارة واحتضنَ عودهُ الوليدَ برفقٍ. جسدهُ النحيلُ لم يبخل. تذكّرَ أرضهُ في القريةِ النائيةِ وأهلهُ البعيدين وتلكَ المرأة التي قالت قبلَ التحاقهِ بالجيشِ السوري:

.سأنتظرُ حتى آخرِ العُمر.

في بالهِ مرّت عريشةٌ على سطحِ الدارِ يجاورها القمرُ في سهراتِ الصيفِ البعيدة.

داعبَ الريشة وبدأ العزفَ فسكتَ الجميعُ من هولِ المفاجأة.

كانَ الصوتُ المنبعثُ من الآلةِ المُبتكَرة أعذبَ من كلِّ الأصواتِ التي سمعوها يوماً. أصابعهُ أسدلت سِحراً خَالِصَاً على الأوتارِ فانطلقت تسكرُ الآذانَ بعزفٍ آسر.

تَداعت إلى رأسهِ آلافُ الصور.. وجهُ أمهِ. رفيقهُ الذي استشهدَ قبل أسبوعٍ حين اخترقت جمجتمهُ ثلاثُ رصاصات. المرأةُ التي قالت له بعد مُضي عامين في اتصالٍ هاتفي قصير:

.حتى آخر العمرِ فترة طويلة يا علي.. سامحني أرجوك.

كلّ جندي قربهُ كانَ يستمعُ إلى العزفِ وفي ذهنهِ تفيضُ آلافُ الصورِ من الماضي والحاضرِ الذي عجزَ الشيطانُ بجلالةِ قدرهِ عن تخيله. أمَّا المستقبل فكانوا لا يستطيعونَ مُجرَّدَ التفكيرَ فيه.

جنودٌ سوريون.. حياتهمُ أو موتهم لا ضجة إعلامية يثيرانها كأنّ قدرهم أن يعيشوا بصمتٍ ويموتوا في صمتٍ لأنهم كانوا مُحاربين ضدَّ قطعان الظلامِ المُمَوَّلِ.. قطعانٌ في استراحةِ الحربِ لا يمكنُ أن تجدَ فيها أبداً شخصاً يعزفُ لأنَّ العزفَ.. حرام.

---

## نافذة باردة

تُغريني بعدَ منتصفِ الليلِ مراقبةُ النوافذ.

خلفَ كلِّ واحدةٍ حكاياتٌ وقصص.

أطالعُ في العماراتِ المُقابلةِ لِغرفتي عشراتِ النوافذِ وأجملها تلكَ المُشرعةُ على غرفِ النوم.

كلَّ مساء، عندما يكونُ الطقسُ مواتياً، أطلُّ من شُرفتي عليها وأنا أشربُ المتّة وأدخنُ السَجائر.

نافذةٌ واحدة لم أرها مُضاءَةً مُذ سكنتُ في منطقةِ التعاونِ المزدحمةِ بالأبراجِ ودائماً تكونُ معتمة وباردة.

ذاتَ مساء، وكنتُ عائداً من سهرةٍ مع بعضِ الأصدقاء، أخذتُ حمَّامَاً سريعاً وخرجتُ إلى الشرفةِ كي أدخنَ سيجارة فشدّ انتباهي النورُ القادمُ من النافذة المَهجورة.

رأيتُ سريراً واسعاً وطاولة صغيرة إلى جانبهِ. في الزاويةِ خزانةُ ملابسٍ وعلى السريرِ كومبيوترٌ محمولٌ مع سماعةِ أذنين.

ما هيَ إلا دقيقةٌ أو اثنتان حتَّى تقدَّمت من السريرِ فتاة آسيويةٌ ترتدي سروالاً خمرياً قصيراً وما يشبهُ القميصَ الداخلي.

راقبتها وهيَ تجلسُ على السرير واضعةَ السمَّاعات الكبيرة فوقَ أذنيها ثم راحت تتحدث.

.ظهرَ الحقُّ وزُهقَ الباطلُ إن الباطلَ كانَ زهوقا..

قلتُ لنفسي وبلمحِ البصرِ أطفأتُ مصباحَ الغرفةِ كي أبقى متخفّياً.

سخَّنتُ الماءَ في الإبريق، جَهَّزتُ كأسَ المتة.. وجلستُ أتابع.

.يا سلام..

لا بدَّ أن نيَّتي كانت صافية حتى أرسلَ الله لي هذه الجارة.

ها هي تجلسُ شبهَ عاريةٍ على سريرها وتتحدثُ إلى أحدهم على (النت) لكنني طردتُ الفكرةَ من رأسي.

ما دخلُ الله ونواياي الصادقة في هذا؟

لو كانَ الأمرُ هكذا لأصبحَ عندي قبيلة أطفالٍ من السيدة مونيكا بيللوتشي.

فجأة..

خلعت الفتاة القميصَ الداخلي، اعتدَلَت أمامَ شاشةِ (الكومبيوتر).. ثمّ رَاحت تُداعبُ حلمتيها.

خرجَ الدخانُ من أذنيَّ كما يخرجُ من أنفِ ثورٍ أمريكي.

هل حقاً هذا يحدثُ أمامي في بثٍّ حيٍّ ومباشر أم أنَّ في الأمرِ خيال؟

بهدوءٍ وغوايةٍ أدخلت الصبيةُ الآسيويةُ يدها تحتَ (سروالها) وبدأت تفركُ مِهبلهَا حتى انفرجت أساريرها.

بعدَ ربعِ ساعةٍ أطفأت ضوءَ الغرفة ونامت.

مددتُ رأسي كي أتأكَّدَ إن كنتُ الوحيدَ من سكانِ العمارةِ رأى ما رأى فلم أجد أحداً..

حمدتُ اللهَ ودخلتُ لأنام.

هكذا..صارَ عندي موعدٌ مع الجارةِ العزيزةِ كلَّ يومٍ بعدَ منتصفِ الليل.

أنا أجلسُ على الشرفةِ وهي تتعرَّى أمامي دونَ أن تدري وتمارسُ عادتها السرية التي لم تعد كذلكَ بالنسبةِ لي.

لا أنكرُ أنني فكرتُ في انتظارها عندما تخرجُ نهاراً ولكن.. ماذا سأقول؟

. مرحباً عزيزتي.. أنا جارِكِ الذي يراكَ يومياً تداعبينَ عضوكِ التناسلي اللذيذ وأرجو أن تسمحي لي بتقديمِ خدماتي في تحمّلِ هذا العناءِ عنك.

سيكونُ من الحماقةِ أن أكشفَ نفسي لها بأي شكلٍ كان.

.ماذا لو لم تكن عَاهرة؟

ماذا لو أنَّ الشخصَ الذي تتعرَّى أمامهُ على شاشةِ الكومبيوتر حبيبها أو زوجها في بلدها المُغتربة عنه فمنَ المُتعارفِ عليهِ عند كثيرٍ من الشعوبِ الآسيوية سفرُ المرأة إلى العملِ خارجَ البلادِ وبقاء الزوجِ مع الأولاد

ماذا سأستفيدُ أنا؟ بالتأكيد لا شيء سوى انتهاءِ عرضِ الفيلمِ وتنبيهها إلى أنَّ زجاجَ النافذةِ المخفي ينفعُ فقط في النهارِ أمَّا مساءً فلا بدَّ من الستارةِ وهكذا ستضعُ ستارةً وأكونُ من الخاسرين.

.حافِظ على الوضعِ كما هو عليهِ أيها الأبله..

قلتُ لنفسي.

حتَّى أنني كنتُ أحياناً استمعُ لعبد الحليم وهي تمارسُ نشاطها الشهي.. وأحياناً لأمّ كلثوم.

مرَّة كنتُ أستمعُ لـ هاني شاكر وصادفَ نشوتها مقطعٌ من أغنية يقولُ فيها..

(مُش أنا.. مُش أنا) ...

فرحتُ أردِّدُ معهُ..

.مش أنا.. هوَّ اللي اختار...

بعد مضي أقل من شهرٍ وكنتُ قد جهَّزتُ (القعدة) تجاوزت الساعة الواحدة ليلاً ولم تظهر جارتي، ثم تجاوزت الثانية والثالثة ولم تظهر.

قلت:

.الغائبُ عذرهُ معه، ثم نمتُ على أملِ اللقاءِ لكن..

في المساءِ التالي لم تظهر وفيما تلاه من أمسياتٍ لم تظهر حتى انقضى الأسبوع وتأكَّدت أنها غادرت الشقة.

وداعاً يا جارتي العزيزة، صنيعكِ لن أنساه ما حييت.

أن تشاهدَ امرأة على طبيعتها تمنحُ الجمالَ لكلِّ شيءٍ حولها فقط لأنها تمارسُ أنوثتها. يا لهُ من أمرٍ عظيم..

كلَّ مساءٍ، عندما يكونُ الطقسُ مواتياً، أطالعُ في العماراتِ المُقابلةِ لغرفتي عشرات النوافذِ وأجملها تلكَ المُشرعةُ على غرفِ النوم.أطلُّ من شُرفتي عليها وأنا أشربُ المتة وأدخنُ السَجائر لكن نافذة واحدة لا ضوءَ يُطلُّ منها عادت كما كانت..

نافذةً باردة.

---

## الإعلامي

استدعتني مديرةُ المؤسسةِ التي أعملُ صحافياً في قسمِ إعلامها منذُ عقدٍ ونيّفٍ فذهبت.

بابتسامتها المشرقةِ رحَّبت بي في مكتبها الكبيرِ ودعتني إلى الجلوسِ وحينَ فعلتُ قلت:

.خيراً أستاذة...

لم تبارح الابتسامة شفتيها وقالت:

.أريدُ منكَ شيئاً لستَ مُلزماً بتلبيتهِ ولكَ مطلقُ الحريةِ في القبولِ أو الرفض.

كنتُ قبل وصولي إلى المكتبِ في حيرةٍ قليلاً لكنَّ قولها زادَ حيرتي فسارعتُ إلى الاستفسارِ عن الأمرِ كي أطفئَ نارَ فضولي وبعدَ أن طلبت عبرَ الهاتفِ من المستخدمِ أن يحضرَ لنا فنجاني قهوةٍ قالت:

.أريدكَ أن تدربَ أحدهم خلالَ شهرين كي يصبحَ إعلامياً.

ابتسمتُ ببلاهةٍ وقلت:

. أنتِ إنسانةٌ مخضرمة في العملِ وتدركينَ أن الأمرَ ليسَ سهلاً فبغضِّ النظر عن الشغفِ وحبِّ الصحافةِ يحتاجُ الإنسانُ إلى دراسةٍ متخصصةٍ ناهيكِ عن الخبرةِ الميدانيةِ وإتقانِ الكتابةِ وأساسيات تحريرِ الخبرِ والتحقيق والزاوية واللقاء وإجراء المقابلة ومدة شهرين تصلحُ كبدايةٍ متواضعةٍ فقط.

دخلَ المستخدمُ حاملاً فنجاني القهوةِ وبعد أن وضعهما أمامنا شكرناهُ وعادَ من حيثُ أتى فما كانَ من المديرةِ إلا أن أخرجت من جارورِ مكتبها مجموعة أوراقٍ راجعتها على عجلٍ ثم نظرت إليّ وقالت:

. أعرفُ ما تفضلت به.. هاكَ سيرةً مقتضبة عن الشخصِ الذي نحنُ بصددِ تدريبه، طالعها وأنتَ تشربُ قهوتكَ ثم أخبرني قرارك.

حينَ أنهيتُ القراءةَ مع قهوةِ الفنجان كنتُ بحاجةٍ ماسةٍ إلى سيجارةٍ لكنّ القوانين تمنعُ منعاً باتاً شربها في مكانِ العمل.

عدتُ إلى تأملِ صورةِ الشخصِ الأسمرِ في السيرةِ الذاتيةِ وبعدَ دقائقٍ من الصمتِ قلت:

.على بركةِ الله، متى نبدأ؟

.هل يناسبكَ الاثنين القادم؟

.في تمام العاشرةِ سأكونُ في مكتبي بانتظاره.

خرجتُ من المكتبِ بسرعةِ البرقِ وحينَ أصبحتُ في الحديقةِ المتاخمةِ لمكانِ العملِ أشعلتُ سيجارة بارتباك.

في العاشرةِ إلا ثلاث دقائق من صباحِ الاثنين طرقَ شابٌ أسمرٌ بابَ مكتبي وحينَ قلتُ (تفضل) حرّكَ رجلهُ اليمنى لكنّ الساقَ لم تكن مستقيمة بل تشكلُ مع قدمهِ زاوية حادة أما القدمُ فهي الأخرى لم تكن باتجاهِ الأمام بل كانَ مشطها هو الذي في المقدمة.

ما أن وضعَ الشابُ رجلهُ اليمنى خطوةً صوب الأمام حتى رفعَ يدهُ اليسرى بحركةٍ لا إراديةٍ فلامست أصابعهُ فمهُ وأمّا الأصابعُ فكانت متشنّجة نحو الداخلِ وكمثيلتها جاوبت يدهُ اليمنى حين تقدمَ برجلهِ اليسرى إلى أن أصبحَ أمام مكتبي مباشرة بعد دقيقةٍ كاملة أو أكثر اجتازَ خلالها.. خمسَ خطوات.

كانت بصحبةِ الشابِ امرأةٌ سمراء في أواسطِ الخمسينات ترتدي الزيّ التقليدي لبلدها خمّنتُ على الفورِ أنّها أمّهُ وكانت في يديهاحقيبة.

رحّبتُ بهما وطلبتُ أن يستريحَا وحينَ حاولت السيّدةُ أن تساعدهُ على الجلوسِ أخبرها أنه يستطيعُ فعلَ ذلك بنفسه.

.أ..أ.. أنا فلانٌ وه.. وهذه أمّمممي.

قال الشابُ بصعوبةٍ فقلت:

.أنعم وأكرم يا أخي، سمعتُ أنكَ تريدُ أن تصبحَ صحافياً؟

ضحك ببراءة وقال:

.وأريدُ مساعدتك.

كانت عيناهُ تشعّانِ حماسة فقلتُ على الفور:

.وبإذنِ الله ستكونُ معرفتي المتواضعة في خدمتك.

كانَ الفتى من الأشخاص ذوي إعاقةِ الشللِ الرّباعي بسببٍ خطأ طبّي عند الولادة، وعلى الرغمِ من الآثار التي تركتها الإعاقةُ على جسدهِ ونطقهِ إلا أن إرادته كانت جليّة في حديثهِ ونظرةِ عينيه الصافية.

اتفقنا على جلستين في الأسبوع قدّمتُ له فيها أقصى ما يناسبُ قدرتهُ على التّعلمِ في كيفية صياغةِ الخبر وإجراءِ اللقاءاتِ المُصوَّرةِ وكلّما رأيتهُ يتقدّم جلسة إثر جلسة أصبحتُ أكثرَ حزماً معهُ خاصة في ضرورةِ نطقهِ للكلامِ برويّة كي يصلَ المعنى وعلى الرغمِ من رغبتي العارمة في التساهلِ مع أخطائه إلا أنّني قاومت ذلك فأنا حقّاً لم أكن أريدُ أن أطعمهُ السَّمك بل تعليمه الصّيد.

بعدَ شهرين وأكثر أصبحَ جاهزاً لإجراءِ أوّلَ مقابلةٍ إعلاميةٍ مُسجّلةٍ وقد جاءَ إليها مُتأنقاً.

كنتُ قد رتّبتُ مع أحدِ المسؤولين إجراءاتِ اللقاءِ في الحديقة المُتاخمةِ لمكتبي بعدَ أن طلبتُ من المصورِ أن يحضرَ في الموعدِ المُقرّر.

لا يمكنُ لأحدٍ أن يتخيلَ مشاعرَ السعادةِ والارتباك التي كانت بادية على وجههِ قُبيل المُقابلة حينَ كانَ المُصوّرُ يثبّتُ المايكرفون على قميصه.

كانت تلك.. أوّلَ مقابلةٍ إعلاميةٍ يُجريها الفتى الطيب وخلفَ المُصور جلست أمّه وفي عينها دمعة..

حينَ أنهى برنامجَ تدريبه قالَ لي:

.شكراً.

أعتقدُ أنّها كانت أثمنَ (شكرٍ) حظيتُ به يوماً.

_____

# في انتظارِ الحافلة

لا بُدَّ لي منَ الاعترافِ أن كرهي للازدحاماتِ التي يتسبّبُ بها البشرُ لا يقلُّ عن كرهي للبشرِ لهذا وبكلِّ ما أوتيتُ من قدرةٍ أحاولُ تجنّبها وتجنبهم ما استطعتُ بيدَ أنَّ الأمرَ ليسَ سهلاً كما يبدو.

على سبيلِ المثالِ لا الحصرِ عندما أجدُ نفسي مُضَّطراً لإنجازِ أمرٍ ما في دائرةٍ حكوميةٍ لا بدّ أن أحشرَ نفسي مع الناسِ المُضطرين إلى الوقوفِ هناك كي ينجزوا أمورهم ويتعاملوا مع موظفين برمجتهم قيادتهم الحكيمة على النصبِ والاستغلالِ والابتزاز.

بدونِ أن أطيلَ في ضربِ الأمثلةِ التي يعرفها القاصي والداني، ولأنني أنتمي إلى طبقةٍ اجتماعيةٍ تحاربها قطعانُ البروجوازية الحكوميةِ والخاصة، أنا من اولئكَ المُجبرين على استخدامِ وسائلِ النقل العام.

كلّ صباحٍ وكلّ ظهيرة، أنتظرُ مع العشراتِ في موقفٍ بائسٍ إحدى الحافلاتِ كي نصعدَ إليها بطريقةٍ عشوائية فامتلاكُ سيارةٍ شبهُ مستحيلٍ أمّا الاعتمادُ على سياراتِ الأجرةِ من شأنهِ أن ينهي المُرتبَ الحقيرَ الذي نتقاضاهُ خلال أيامٍ قليلة.

لم تكن ظهيرة ذلكَ اليومِ مختلفة عن غيرها، جميعنا عائدون من وظائفنا التافهةِ وننتظرُ حافلةَ النقلِ العامِ ليسَ بعيداً عن مركزِ مدينتنا الهمجيةِ ومن رحمةِ الله يومها، كان الطقس جميلاً.

حاولت بادئَ الأمرِ أن أكونَ مُتحضراً فاتخذتُ مكاناً خلفَ الناسِ المتزاحمين وأشعلتُ سيجارة متأمّلاً صورةً عملاقة للزعيمِ وهو يبتسمُ فوقَ بناءٍ شاهقٍ دونَ أن أجدَ سبباً منطقياً لابتسامتهِ فأحوالُ هذهِ البلاد لا تسرّ سوى العدو.

أشعلتُ سيجارةً وسألتُ نفسي:

.هل الإنسانُ مُخيّرٌ أم مُسيّر؟

دقيقة لو سمحت..

لم تختر أبويك، لم تختر عائلتكَ، لم تختر الوضعَ المادي لعائلتكَ، لم تختر قريتكَ أو مدينتكَ، لم تختر وطنكَ، لم تختر حتى اسمك..

يترتّبُ على ذلكَ أشياء قد تفوقُ قدرتكَ على الاستيعابِ حتى لو استطعتَ فيما بعد أن تختارَ ما سُمحَ لكَ باختيارهِ إن فهمتَ ما أعنيه..

وصلت الحافلة... يا له من كرنفال.

تدافعَ الناسُ كمن رأى مُخلِّصاً يريدُ أن يتبارك بهِ..

.يبدو لي أن الدينَ بالنسبةِ للفقراءِ ليس اختياراً على الإطلاق.

هل خفَّ الازدحامُ في الموقفِ بعدَ أن امتلأت الحافلة بالواقفين أكثر من الجالسين؟

حاشا لله فالناسُ في هذهِ البلادِ الرائعة كفّوا منذ زمنٍ عن التكاثرِ بطريقةٍ طبيعيةٍ بعدَ أن اكتشفوا الطريقة المثلى للفيروسات في ذلك.. الانشطار.

هذه الجيناتُ العبقرية لا بدّ أن تملأ الأرجاء..

بينَ إبهامي ورأسِ إصبعي الوسطى وضعتُ عقبَ السيجارةِ وقذفتهُ بعيداً بعدَ أن أيقنتُ أنني كي أصعدَ الحافلة القادمة لا مفرَّ أمامي منَ الإنخراطِ في هذا الخراءِ الوجودي.

بطريقةٍ ما استطعتُ أن أصعدَ إلى الحافلة لكن ليس الجلوس فيها فالمقاعدُ مشغولةٌ عن بكرة أبيها والواقفون أكثر من الجالسين.

وليكن.. المهم أن أصلَ غرفتي كي أنام.

بالنسبة للبشرِ، كانَ النومُ فيما مضى نتيجة طبيعية للنعاس، الآن، نستخدمهُ للهروب.

تخيّل معي حجمَ المصيبة، لديك حياة وتريدُ أن تهربَ منها.

على الرغمِ مني رحتُ أطالعُ وجوهَ الركابِ وقد هالني ما فيها من حزنٍ وتعبٍ وشقاء و.. يأس.

بينما كانت الحافلةُ تقلعُ في سيرها باتجاهِ أعمارنا المؤجّلة بدت عبرَ زجاجِ نوافذها تلكَ الصورة العملاقة للزعيمِ وهو يبتسم وربّما، كانَ الشخص الوحيدَ الذي يفعلُ في البلاد.

———

# اقرأ كتاباً يا أخي

قالَ أحدُ الحكماء:

.إذا لم تشعر بالراحةِ في مكانٍ ما، ارحل عنه.

راحَ سعيد يسحبُ من نارجيلتهِ بقوةٍ ثم يطلقُ من فمهِ ومنخريهِ دخاناً كثيفاً.

في المقهى الشعبي المُطلّ على ساحةِ المدينةِ الكئيبةِ كُنّا جَالِسينِ نَجترُّ خيبتنا ونتأمَّلُ وجوهَ العَابرين.

رجلٌ سِتيني مُحدودبُ الظهرِ يحملُ أربعةَ أكياسٍ بلاستيكيةٍ فيها خضارٌ وخلافه.

صبيّة عشرينيةٌ تعبرُ مُختالةً وبعينينِ صيّادتين تبحثُ عن زوجٍ تفترسه.

بائعُ (يانصيب) أكلَ الدهرُ على تجاعيدِ وجههِ وشرب يبيعُ الناسَ حظّاً.

شرطي بائسٌ يحاولُ تنظيمَ المرورِ في بلدٍ قتلَ أهلهُ من بعضهم بمساعدةِ الأصدقاءِ والأعداء نصفَ مليون روحٍ، وأكثر.

صدقاً لستُ أذكرُ عمَّا كنَّا نتحدثُ قبلَ أن يتحفني سعيدٌ بتلكَ الحكمةِ التي قالها غليظٌ ما فمعظمُ الحكماءِ يصيبونني بالقرف، خاصة اولئكَ العجزة منهم.

يعتقدُ الأحمقُ منهم أنّ مجردَ التقدمَ في العمرِ يمنحهُ الحكمة.

.إذا لم تشعر بالراحةِ في مكانٍ ما، ارحل عنه.

أعدتُ تكرارَ الجملةِ الرهيبة برتابةٍ وأنا أشعلُ سيجارة ثمَّ قلت:

. أعرفُ جندياً يخدمُ في مكانٍ ما أقاصي شرقَ سوريا منذ سبعِ سنوات وفي ذلك المكان هو ليسَ مرتاحاً وحسب، احتمالُ أن تستقرَّ رصاصةٌ في رأسهِ كبيرٌ جداً.

هل تعلم ما الذي سيحدث إن رحلَ عنه؟

سيعتبرونهُ هارباً من خدمةِ (الوطن) وحينَ تلقي الحكومة القبضَ عليهِ ستتمُّ مقاضاته، ومن يدري العقوبة التي سيتّخذونَها بحقّهِ!

طلبتُ فنجاناً ثانياً من القهوةِ ودونَ أن أنظرَ في عيني صديقي الذي تغريهِ ثقافة (البوستات) القصيرة فيحفظها دونَ تفكير:

.ليسَ سهلاً على المرءِ تركُ مكانٍ لا يعجبهُ متى شاءَ يا عزيزي.

نحنُ مُقيَّدونَ بالأماكنِ، الوضع المادي، الأهل، العمل، الوضع المادي، الذكريات، الأصدقاء، الوضع المادي، إجراءات السفر وخاصة بالنسبةِ لسكانِ الوخمِ العربي..

الأمرُ ليسَ سهلاً حتّى على الأغنياءِ فما بالكَ بمن لا يملكونَ سوى الفتات.

.أرجوكَ يا سعيد..

قلتُ بحنقٍ وعصبية..

.كفّ عن تكرارِ ما تحفظهُ من صفحاتِ الفيسبوك بهذه الطريقة المهينة وجرّب أن تقرأ كتاباً يا أخي.. وأرجوكَ.. اقرأ الكتابَ، لا تحفظ العنوانَ فقط.

———

## أمّي وقصصي

لم أقابل أمّي منذ خمسِ سنوات.

نحنُ الآن في الأيامِ الختاميةِ للعام 2019.

كانت آخر زيارةٍ لي إلى سوريا سنة 2014 وخلال هذه الفترة اقتصرَ التواصلُ بيننا على الهاتف.

.كيف حالك؟

.الحمدلله وأنتم؟

.الحمدلله.. مشتاقون.

يدورُ معظمُ الحديثِ بيننا هكذا، ثمّ يكتشفُ كلّ واحدٍ بعدَ مُدةٍ أن فلاناً من العائلةِ أجرى عملية جراحية وفلاناً تعرضَ لحادثٍ عنيف وفلاناً عانى من أزمةٍ قاسية إلخ.. المهم هو ألا يبوحَ أحدنا في الحديث الهاتفي المقتضب بشيءٍ يقلقُ راحة الآخر ويشغلُ باله.

قبل فترةٍ قصيرةٍ أنشأ أخوتي لها صفحةً على الفيسبوك وحينَ أرسلت لي طلبَ صداقةٍ قبلتهُ على الفورِ فأصبحنا.. صديقين.

هكذا راحت أمّي تقرأ قصصي وتضعُ لي (لايكات) لا من مبدأ الإعجاب.حسب ما اعتقد.ولكن كلَّ سعدان في عينِ أمهِ أديب.

مع مرور الأيام اكتشفت الوالدة مقدارَ المجونِ والعلاقاتِ الحميمية التي تضمها بعض قصصي لكنها تدركُ كم أكرهُ أن يتدخلَ أحدٌ فيما أكتبهُ من بابِ أنّه لكَ مطلقُ الحريةِ في القراءة أو عدمها فإن أعجبكَ ما قرأت أهلاً وسهلاً وإن لم يعجبك فمع ألفِ سلامة.

ذاتَ يوم نشرتُ قصة مجونية أرّختُ فيها لواحدةٍ من أغربِ العلاقاتِ التي خضتها في غربتي الطويلةِ وعلى ما يبدو كانَ وقعُ العباراتِ الفاجرة فوقَ قدرتها على التحملِ فأرسلت لي على (الماسنجر) للمرةِ الأولى، رسالة استهلتها بـ:

.كيفك يامو؟

عندما رأيتُ الرسالة اقشعرَّ بدني فالرجلُ حتى لو عاشرَ ألفَ امرأة يقفُ أمامَ أمّهِ كالجربوع الصغير.

بلعتُ ريقي وأشعلتُ سيجارة ثم قلت:

.الحمدلله.. خير؟

قالت أمي:

.ما هذه القصة يا بني، بالله عيبٌ عليك!

أيّ شخصٍ في هذا الكون لو قال ما قالته لحظرتهُ على الفور. وعلى الرغم من غيظي من تدخلها في شأنٍ لا شأنَ لها به إلا أنّها تبقى الغالية لهذا استهديتُ بالرحمن وحاولتُ أن أختصرَ الحديث قدرَ الإمكان فقلت:

. هذه بعضُ متطلبات الأدب.. لستُ أوّلَ من وصفَ جسد المرأة ولن أكون الأخير.

فما كان منها إلا قالت بعد أن دعت لي بالصحةِ والعمر المديد:

.يا بني إن كانَ هذا الأدب فكيفَ تكونُ قلة الأدب؟!

من يومها عاد التواصل بيننا عبرَ الهاتف.. فقط.

.كيفَ حالك؟

الحمدلله، وأنتم؟

.الحمدلله ... مشتاقون.

## لا أشربُ المتّة معَ الرئيس

صديقتي الكُرديّة كانت مُصرَّة أنَّني، ولأنَّني منَ اللاذقيةِ لا شكَّ أعرفُ الرئيسَ أو سبقت لي مقابلتهُ بما أنَّنا من نفسِ (الطائفة).

قالت ذاتَ يوم ماطرٍ بعد أن لجأنا إلى غرفتها المُستأجرة في حي الشيخ السعد هرباً من محاضرات الجامعة:

. لا تُنكِر أيُّها الوغد، أنتم أبناءُ الساحلِ السوري لا بدَّ أن تكونوا قد جلستم مع الرئيسِ مرَّة على الأقلِّ باعتبارهِ واحداً منكم.

تنهَّدتُ بحزنٍ ثم أشعلتُ سيجارة وقلت:

. سأخبركِ (عنّا) قليلاً يا صديقتي علّكِ تغسلينَ ما زرعهُ الآخرونَ في دماغكِ الساذج.

نحنُ أبناءُ الساحلِ أبناءُ هذهِ الأرض السوريّة قبلَ أن يكونَ الرئيسُ منا بمئاتِ السنين.

قبلَ أن تأتي عائلاتٌ بأسرِها من بلادِ الأتراك لتسكنَ دمشق وحلب وتصبحَ فيما بعد من العائلاتِ السوريّة المعروفة..

نحنُ الفلاحين الذينَ شربت أرضُ سوريًّا من عَرقهم أكثر ممّا شربت من أنهارها والجنود الذين ارتوت أرضُ سوريّا من دمائهم أكثر من أمطارها والأدباءُ الذين يُنكِرُهم ويغارُ منهم الآخرون.

كانت الريحُ تعصفُ في الخارج ودمشق تغتسلُ بماءِ المطرِ فقدَّمت لي الفتاة كأساً من النبيذ وهمست:

. أرجوك تابع..

أشعلتُ سيجارةً ثانية بعد أن رشفتُ بتروٍّ وقلت:

.نحنُ الذين هاجمتهم قطعانُ العثمانيين في حلب فلجؤوا إلى جبالِ الساحلِ السوري كي يعيشوا في غاباتهِ بين (الدياب).

هل سمعتِ أغنية فيروز.. (نحنا ودياب الغابات ربينا)..

هذه الأغنية غنّتها فيروز لنا.

لو تعلمينَ كم كلّفنا انتزاعُ حقّنا المهدورِ من قبلِ الجميع... كلّفنا الكثير.

لو تعلمينَ كم من الآباءِ والأمّهات تعذّبوا حتى نُحصِّلَ أعلى الدرجاتِ العلمية.

أنتِ ما أن تسمعي لهجتي حتى يتبادرَ إلى ذهنكِ أنّني رجلُ أمنٍ خطير أو ربما آكل لحوم بشر.

في الحقيقةِ أيتها الكردية البسيطة.. نحنُ أطيبُ ممّا تتوهمينَ بكثير وأشجعُ ممّا تتصورين بكثير.

مُحبونَ لكلِّ من يريدُ لنا الخير والحالة الطبيعية ألا نكونَ مُتسامحين مع من يريدُ إرسالنا إلى التابوت، فنرسلهُ إليهِ أولاً.

قد لا تصدِّقين لكن، أن يكونَ المرءُ من هذهِ الطائفة فإنّ ذلكَ لا يعني أن أبوابَ الدولة فُتحت له بل العكس، نسبة الفقراء هناك أكثر من أيّ منطقة في سوريا، وهذا حديث طويل طويل.

اقرأي قليلاً عن المتنبي وسيف الدولة الحمداني وأبي فراس

تعلمي شيئاً عن بدوي الجبل وأدونيس وسعد الله ونوس وممدوح عدوان

امسكي كتاباً لحيدر حيدر وطالعيه. اسألي عمّن يكون المكزون

كي تحكمي على الناس اعرفيهم أولاً، لكنّ الأهم من كل ذلك لا بد أن تعرفي..

أنا، لا أشربُ المتة مع الرئيس.

---

## فوقَ ثلوجِ القلمون

في منتصفِ العقدِ الثاني من القرنِ الحادي والعشرين، لم يكن لدى محمد نصر الدين صفحة على موقعِ التواصل الافتراضي أو الحقيقي فهو يتنقّلُ خلالَ الحرب السوريّة القذرة من جبهةٍ إلى جبهة حسبَ الأوامر التي تأتيه.

هوَ يتيمَ الأبِ والأمِّ منذ زمن طويل. مع بدايةِ الحربِ التحقَ بالجيش السوري وقرّر الوقوفَ مع من وقفوا..

قال رفيقهُ ذات صباحٍ جليدي في أعالي القلمون..

.اشتقتُ لأمّي يا رجل.

أشعلَ سيجارةً وراحَ يضحك بجنون.

ضحكَ حتّى انهمرَ الدمعُ سيلاً وسطَ استغرابِ صديقه وبعدَ أن هدأت نوبةُ الحزنِ الهستيري قال:

.هنيئاً لمن لديهِ أمٌّ على قيدِ الحياةِ يشتاقها. يوماً ما سيراها.

كانَ رفاقُ السلاحِ ينادونه بـ ( الطيّب).

لقسوةِ فقرهِ لم يكن يملكُ سوى فتات مالٍ من مُرتّبٍ يتقاضاهُ الجندي السوري لا يعادلُ ثمن ربطة عنق ملفوفةٍ حولَ رقبةٍ خنزيرٍ غليظة..

ذات يومٍ.. وخلالَ نوبةِ للحراسةِ سمعَ محمد صوتاً غريباً فتقدّم ليستكشفَ الأمرَ بيد أن تَقدّمَ الرصاصةِ التي استقرّت في صدرهِ كان أسرع..

حين استطاعَ رفيق السلاح الوصل إليه كان يلفظُ أنفاسهُ الأخيرة.

وعلى الرغمِ من الدماء التي ملأت فمه استطاعَ أن يقول لآخر مرة وابتسامةٌ غامضةٌ على شفتيه:

.اشتقتُ لأمّي يا رَجُل.

# وجهُ المدينة المُشوّه

أحياناً.. يلجأُ إلى الشارعِ القريبِ من القبو الذي يقطنُ فيه كي يُدخّنَ سيجارة وهو يمشي مستنشقاً بعضَ الهواءِ النظيف مستأنساً بوجوهِ الناسِ رغم حزنهم فهو منذُ زمنٍ طويلٍ يعيشُ وحيداً في عزلتهِ مع الكتبِ والأوراق ..

غيّرت الحربُ السورية وجهَ المدينة كما غيّرت وجوهَ ناسها.

كانَ كلّما خرجَ من قبوهِ يقرأ التعبَ المسطور فوقَ أجفانِ البشرِ فمن لم يمت بالحربِ تكفّل أمراؤها وتجّارها بقتلهِ لكن.. ببطء.

هذا النهار.. تفاجأ بحركةٍ غير اعتاديةٍ ونشاطٍ غير مسبوق يشهدهما شارعُ المدينةِ الرئيسي وما كان بحاجةٍ إلا لصبرٍ قليلٍ كي يعرفَ من تلقاءِ نفسهِ أن سبب هذه الحركة انتخابات مجلس الشعب فقال لنفسه:

. أيّ شعب؟

ومتى كانَ لهؤلاءِ المساكين مجلسٌ في هذه البلادِ المنهوبة؟

قفلَ عائداً إلى قبوهِ لكنَّ البكاءَ الصامتَ لسيّدةٍ خمسينيّة أجبرهُ على التوقف.

كانت مُتشحة بالسوادِ وقد احمرّت عيناها من قسوةِ البكاءِ وهي تنظرُ بقهرٍ إلى صورةٍ لأحدِ المُرشّحين ممّن ذاعَ صيتهُ بسرقاتهِ ونهبهِ للمالِ..

قال مواسياً:

.الحق معكِ..

إنّه لمن دواعي ذرف الدموع أن يشاهدَ المرءُ لصوصَ بلادهِ وهم يُرشِّحونَ أنفسهم لمجلسِ الشعبِ تحت رعاية وحماية الدولة.

أخرجَ علبة التبغِ من جيب معطفهِ الرثّ دونَ أن يحيدَ بصرهُ عن السيدةِ الحزينةِ وبعدَ دقائق من الصمتِ المُتبادل وقبلَ أن يهمّ بالإنصراف قالت:

- أنا لا أبكي لأنّه رشّحَ نفسهُ كي يصبحَ عضواً في مجلسِ الشعبِ فمجلسٌ كهذا لا يليقُ به إلا هؤلاء لكن..

راحَ يسترجعُ كلامها وهو ينزلُ درجاتِ القبو بتثاقلٍ وكيفَ مزّقَ قلبها أن يضعوا صورة اللصّ فوق صورة ابنها الشهيد..

## على الورق..

ذاتَ مساءٍ، قربَ البحرِ سألتني صبيةٌ حلوةٌ على حينِ غرّة:

.متى تكونُ على حقيقتك؟

ربما راودني معنى السؤالِ على شكلِ أفكارٍ عشوائية لكنهُ لم يخطر بهذا الوضوحِ من قبل.

أشعلتُ سيجارة ثمّ كرّرتُ بصوتٍ مرتفع:

.متى تكونُ على حقيقتك؟ يا لهُ من سؤال.

في العملِ أنا مُجبرٌ على ارتداءِ قناعِ الصحافي الملتزمِ المُجتهدِ الحريصِ على صالحِ المجتمعِ العام.

أمامَ أبي كانَ لا بدَّ من قناعِ الفتى المستعد لتركِ البيتِ والإبحارِ صوب المجهول كي يعتمدَ على نفسهِ فقط.. قناع الفتى الذي لا يريدُ أن يكونَ عبئاً على راتبِ موظفٍ سوري تافه.

كانَ انعكاسُ ضوءِ البدرِ على وجهِ الصبية والمويجات في أبهى حلّتهِ ولا أريدُ أن أفسدَ ما يمكنُ أن يحملهُ المساءُ معها لكنَّ معنى السؤالِ غلبني فتابعت:

.أمامكِ مثلاً.. أنا أرتدي قناع من يبحث عن الحبِّ والرومانسيةِ في الظاهر ويريدُ أنا ينامَ معك في الباطن.

الشاب الذي أخفى عنكِ أنهُ.. متزوج.

مع زوجتي أنا الرجلُ صاحب قناعِ الإخلاصِ الذي لا يفكرُ بآلافِ الأثداءِ والحلماتِ العذبة.

ارتبكت الصبية وتغيرت أساريرها وأحسبُ أنها لم تعد تسمعُ شيئاً فبدت تائهة وغريبة الملامح..

لم أكترث..

في النهاية، وبعد أن سحبتُ آخر نفسٍ من السيجارة قلت:

.أعتقدُ يا صديقتي أن المكانَ الوحيد الذي أكونُ فيه على حقيقتي هو.. الورق.

في كلامٍ آخر.. حقيقتي تجدينها في قصصي.

———

## اللعبة

كنّا نلعب.

هيَ تمدّ يَديها وأنا أحاولُ لمسهمَا قبلَ أن تسارعَ إلى سحبهما.. ضاحكة.

كانَ شَرطِي بسيطاً، بريئاً، طفولياً أمّا شروطها فكانت تعجيزيّة.

كلّمَا نجحتُ في لمسِ اليدينِ طلبتُ منها خلعَ قطعةٍ من ملابسها.

لا تعقيدَ ولا نكد.

البداية مع القميص..

احتجّت هي على ذلك لكن..

.ما أوّلهُ شرطٌ.. آخرهُ امرأة عارية.

الرابحُ هوَ من يُقرّرُ وقد ربحتُ في البداية فطلبتُ أن تخلعَ القميص.

نفَّذتِ الشرطَ وعادت إلى الجلوسِ أمامي مُتربّعة على السرير.

ربحتُ مرة ثانية فطلبتُ أن تخلعَ البنطال..

المرأة ذاتُ الفخذينِ المُمتلئين والساقين الرخاميتين.. المرأة ذاتُ القدمين الجميلتين الناعمتين تحفةٌ حقيقية وهي متربعة على السريرِ شبه عارية.

المشكلة أنني فقدتُ تركيزي وفي المحاولة التالية فشلت.

.عليكَ القيامُ بثلاثين حركةِ ضغط.

قالت آمرةً.

نظرتُ إلى كرشي ثمّ أعدتُ النظر إليها..

.تمزحين؟

قلتُ بمسكنةٍ لم تنفعني.

أشارت بإصبعها صوبَ الأرضِ وأمرت ثانية:

.نفّذ ثمّ اعترض، إلا إن كنتَ تريدُ إيقافَ اللعبة.

أشعلتُ سيجارة ولعنتُ حظي..

ما زلنا في البدايةِ ولم أنجح حتى الآن إلا في دفعها لخلعِ قميصها وبنطالها.

هاهي الآن تريدُ إذلالي.

.ثلاثون حركة ضغط؟

رحتُ أفكرُ في المهمّة المستحيلة بالنسبةِ لكائنٍ أدمنَ الكسل.

كنتُ متكئاً على ظهرِ السريرِ أعبُّ دخانَ السيجارةِ وأقلِّبُ الخياراتِ التي بين يدي.

بعدَ دقيقتين من التفكيرِ حزمتُ أمري. لابدّ أن أراها عارية ولو كلفني ذلكَ كرشي كله.

قمتُ بعمليةِ إحماءٍ خفيفةٍ ثمَّ بدأت..

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة..

تتالتِ الأرقامُ ساحبةً معها أنفاسي المُتهالكة.

.هذه المرأة تريدُ قتلي قبلَ أن أنجحَ بلمسِ يديها مرّة ثانية لكنني لم أستسلم.

رحتُ أتخيَّلها وهيَ تخلعُ حمالةَ نهديها مُنفِّذة أوامري.

تدفَّقت دماءٌ جديدة في عروقي.

عندَ الرقم ثلاثين ارتسمت على مَلامِحها خيبة أملٍ مَمزوجة بغنجِ نساءِ الأرضِ مُجتمعات.

جلستُ لاهثاً، مُرهقاً، لكن.. مُتفائلاً.

عدنا إلى اللعبةِ من جديد فمدّت يَديها الراجفتين وتريَّثتُ بِدوري.

لا بُدَّ أن تكونَ ضربتي مُوفّقةً وإلا ستطلبُ منّي هذهِ اللئيمة أن أقومَ بمئةِ حركةِ لتمرين المعدة.

هكذا ستضمنُ انسحابي من اللعبةِ وتعود إلى ارتداءِ ملابسها.

لطيتُ كما يلطي الذئب وحينَ سالَ لعابي قليلاً مسحتهُ بِلساني.

تهيَّأتُ، تَحفَّزتُ، ثم انقضضتُ وأصبتُ يديها أصابة مباشرة.

لا كلمات تصفُ ملامحها وهي تنتظرُ قراري..

كانت بملابسها الداخلية فقط.

هل أطلبُ أن تخلعَ الفوقانية أم التحتانية..

أشعلتُ سيجارة وكبعتُ من زجاجةِ العرقِ مجّة.

تلذَّذتُ بمراقبتها وهي تنتظرُ الحكمَ الذي سأصدره.

أصبحَ جسدها كلّهُ متورداً فتركتها (تستوي) بهدوءٍ لا بل إنني فتحتُ نقاشاً معها عن الفنِّ التشكيلي الذي

كانت بارعة فيهِ لكنّني لم أفهمهُ يوماً.

أربكها برودي فزادَ توهُّجُها بيدَ أنّي أمعنتُ في تجاهلِ الطلب.

فتحتُ نقاشاً آخر عن كتابِ بوكوفسكي الذي قرأتهُ قبل أسبوع.

راقبتُ عينيها الغائمتين فاستنتجتُ أنها لم تسمع حرفاً واحداً ممَّا كنتُ أحكيهِ عن مكتبِ البريد.

انتشيتُ بعذابها فتعمّدتُ إطالتهُ وتجاهلتُ جسدها كلياً.

رحتُ أحدِّثُها ناظراً في عينيها فقط فجنَّ جنونها لكنها أكّدت لي بعدَ ساعةٍ ونحنُ نشربُ سيجارتين أنها لم تندم أبداً على ما قامت بفعله.

———

## تراجيديا

أحياناً.. وبكاملِ قوايَ العقلية، أنتظرُ شخصاً يقولُ بطريقةٍ مسرحية:

.أيّها النّاس، كنّا نمزحُ ونمارسُ معكم.. الكوميديا.

هذه ليست الحياة الحقيقيّة ولدينا ما هو أفضل.

## رسالةٌ من الجبهة

في رسالةٍ هاتفية، إثرَ معركةٍ مع تنظيم جبهةِ النصرةِ على الحدودِ الشماليةِ كادَ يُقتلُ فيها..

وبعدَ أن أشعلَ سيجارةً ملتقطاً أنفاسهُ المتسارعة..

كتبَ جندي سوري من قريةِ باب جنة في مدينة اللاذقية لحبيبتهِ التي لم يرها منذُ سبعةِ أشهرٍ وأسبوعين وأربعة أيام..

.(اشتقتلك)..

ماذا تلبسينَ الآن؟

لا أحدَ في الدنيا يعرفُ مقدارَ الندمِ الذي يأكلُ الصبيّةَ لأنها لم تخبرهُ فقد استشهدَ بعد ثلاثةِ أيام.

## الرَّاهِب

لتسعةِ أشهرٍ وأنا أمشي على الصراطِ المستقيم. لا أشربُ الخمرَ أو السجائرَ ولا أعاشرُ الغانياتِ ولا أفتعلُ المشاكلَ مع أحدٍ لا بل إنني أسامحُ من يفتعلها معي.

هكذا تحوّلت من شخصٍ يضاجعُ كل شهرٍ فتاتين جديدتين إلى راهبٍ متزوج أذهبُ إلى العملِ صباحاً وحين أرجعُ أجلسُ في المنزلِ أشاهدُ التلفاز ثم أنام.

أصبحتُ نظيفاً من الداخلِ وأشعرُ حقاً أنني ميت.

---

## امرأةٌ في كتاب

هل وقعتَ في غرامِ امرأةٍ بينَ السّطور؟

أنا فعلتُ.. كثيراً.

كنتُ كلّما قرأتُ كتاباً وأعجبني وصفُ الكاتبِ للمرأةِ التي فيهِ، أحبُّها على الفور.

وكنتُ يا صاحبي كلّما تقدمتُ في العمرِ أحسبُ أن هذا الهوس سيختفي لكن ما أن تُطِلَّ إحداهنَّ من بينِ الصفحاتِ حتى تنطلقَ مخيلتي بينَ العينينِ والعنقِ والحَلمتين ومثلث فينوس الشهي وذاتَ مساء..

صنعتُ لنفسي كأساً من المتةِ وجلستُ في غرفتي بعدَ يومٍ عملٍ شاق لأكملَ روايةً صاحبها أديبٌ ياباني كانَ قد لمّحَ في صفحاتها الخمسين الأول لامرأةٍ فاتنةٍ ستظهرُ عمّا قريب...

أشعلتُ سيجارة وسافرتُ إلى تلكَ القريةِ النائيةِ على سفوحِ جبل (تينجو) حيث أمطارُ الربيعِ تهطلُ بغزارةٍ حيناً وبرويّةٍ في بعضِ الأحيان.

بالنسبةِ لشخصٍ مثلي يعيشُ في بلادٍ صحراويةٍ لا يهطلُ المطرُ فيها سوى مرّةٍ أو اثنتين طيلة العام.. ذاكَ أمرٌ عظيم.

رحتُ استمعُ بينِ الكلماتِ لنشيدِ المطرِ والجداولِ الصغيرةِ التي يرسمها على قماش الطرقات..

.أنا مدينٌ للكتبِ بالكثير.

غالباً، حينَ أقرأ، أفضِّلُ الصمتَ المُطبقَ لكن هذه المرّة لم أمانع أن تشاركني فيروز أمسيتي فانتقيتُ باقةً لها قالت في مطلعها:

.يا ريت.. أنت وأنا بالبيت ..

ودونَ أن أشعرَ بالوقتِ.لأنَّ القراءةَ فعلُ سفرٍ عبرَ الزمن كما قال العظيم كارل ساغان .كنتُ أعبرُ مع صديقنا (ناتسومي) من دربٍ إلى دربٍ ومن حقلٍ إلى حقلٍ حتى وصلنا إلى بيتها ذي الحديقةِ الكبيرة بأشجارها وزهورها المتنوّعة ومن خلفِ إحدى الشجيرات جاءني صوتُ ناي.

مع انتصافِ الليل لم نكن نلمحُ وجهَ الفتاة التي تعزفُ بل خيالاً لها وبين الحينِ والآخر إثر توقفِ المطر كانَ

يصاحبُ صوتَ الموسيقى عزفٌ للقطراتِ التي تجمَّعت فوقَ أوراقِ الشجر وهي تداعبُ وجهَ الريحِ والأرضِ بالقبل.

برمشةِ عين، جرّاء حركةٍ غير اعتيادية داخلَ الغرفةِ عدتُ من سفوحِ تينجو وكانَ دخانٌ كثيفٌ قد ملأ الأرجاءَ فما أن انقشع حتى رأيتها.

فتاة الناي بلباسها الأسطوري تجلسُ الآن على أرضيّة الغرفةِ وتعزفُ متكئة على خشبِ المكتبةِ ناظرة إليّ بعينين من وهمٍ وسراب فأنا لم أكن بعد قد رسمتُ وجهاً لها فتساءلت:

.هل تكونُ الموسيقى من صورِ الأنثى الحسنى؟

## البَعث

شعورٌ غريبٌ اعتراهُ وهو ينهضُ من فراشهِ هذا الصباح. لقد كانَ حُرَّاً.

للوهلةِ الأولى لم يدركِ الأمرَ بشكلٍ جليّ لكن ما أن مرَّت دقيقتانِ حتى بدأ يتحسّس جسدهُ مذهولاً من قوّةِ العضلاتِ والطاقةِ الهائلةِ التي تسري في عروقه.

قفزَ عن السريرِ بخفَّةٍ كأنّه يطير.

في الحمَّام، وقفَ أمامَ المرآةِ غيرَ مُصدِّقٍ ما تراهُ عيناهُ لأنه حنى رأسهُ كي يظهرَ انعكاسُ وجهه وهذا يعني أنه صارَ أطول.

تأمّلَ بانفعالٍ ساقيه وعروقه البارزة بانسياب من الفخذين ثم وضع يده على أعضائهِ فسرت داخل جسده قشعريرة كأنما صاعقة بُعثت منها فقال لنفسه..

.لا شكّ أنني قادرٌ على مضاجعة أربعين امرأة في نفس الوقت..

كانت غرفتهُ الحقيرة قد واكبت ثورة جسدهِ فتحولت إلى مكانٍ رائعٍ تعبقُ منه رائحة الخزامى..

استطاعَ أن يرى البحرَ الجميل تتلألأ مياههُ الزرقاء تحتَ أشعة الشمسِ من خلف الستائر الناصعة..

.من أين جاء هذا البحر إلى هنا؟

هرشَ رأسهُ مستفسراً والحيرة تأكلهُ فالمنظرُ الوحيد الذي كان يراه طوال عشرين عاماً من نافذة الغرفة هو مجموعة من العمارات القذرة والشوارع المزدحمة بالفقراء والسيارات..

لم يكن هذا الصباح عادياً على الإطلاق..

جلّ ما خشي منه أن يكون الأمر حلماً فقرّر أن يصرخ بأعلى الصوت ليستيقظ بشكلٍ ما لكن شيئاً لم يتغير..

مدَّ إبهامه وسبابته بهدوء نحو خدّه وقرصَ نفسه بقوةٍ..

لم يطرأ أيُّ جديد..

كل شيء حقيقي.

سليمان رجلٌ فقير مربوع القامة خفيف الشعر أجعده ترك الجدري الذي أصابه في مقتبل العمر آثاراً كالآخاديد على وجنتيه..

هو الآن في منتصف الأربعينات ويعمل منذ خمسة وعشرين عاماً بدوامٍ كاملٍ في مصنع للنسيج على أطراف المدينة الجنوبية..

غير متزوج ولا أصدقاء عنده سوى التلفاز الذي يتابع عبر محطاته الفضائية أخبار العالم والناس ويمارس عادته السرية قبل أن ينام على مشاهد الجنس في محطاته الإباحية.

إمكانياته العقلية المتواضعة لم تُقدِّم له جواباً شافياً عن طبيعة التحوّلِ العجيب الذي أصابه فقرر أن يخرج.

في خزانة ملابسه وجد مجموعة من أجمل القمصان البحرية ومجموعة من السراويل القصيرة الرائعة فتجاهل دهشته وارتدى قطعتين. من وضع البحر إلى جوار غرفته وجعل منه رجلاً خارقاً لن يعدم حيلة كي يضع بعض الملابس في خزانته..

فتح الباب بهدوء فداعبه النسيم البحري ثم أشرقت الدنيا عليه بألوان خلابة..

كانت مجموعة من الأشخاص على مسافة غير بعيدة تلعب وتمرح والقاسم المشترك بين أفرادها من ذكور وإناث أنهم جميعاً.. عُراة.

.اللعنة.. أنا في شاطئ العراة

قال لنفسه..

.من أحضرني إلى هنا؟ وأي بلد هي هذه؟

ليقطعَ الشكّ باليقين اقترب من المجموعة اللاهية على الشاطئ وما أن بدت له نهود النساء وحلماتهن بوضوح حتى تدفق نهر خصوبته دونما انقطاع وكأنما لن ينتهي وسرت في عروقه رعشة مستمرة ما أحسّ بمثلها في حياته قط ثم لمح الفتيات يهرعن إليه..

**

كانت أيّام عدة قد انقضت..

الرائحة المنبعثة من الغرفة لم تعد تُطاق فلم يجد جارُه بُدّاً من الاتصال بالشرطة بعد أن أعياه الطرق على الباب دون جواب..

حين قام الرجال بالاقتحام فاحت تلك الرائحة بشكلٍ مُضاعف وانتشرت تسعة جراذين في المكان بعد أن أصابها الهلع..

إنها غرفة سليمان..

العاملُ الذي أمضى أكثر من نصف حياته وهو يكدحُ ليسدّ رمقه ويحيا في غرفة حقيرة على الأطراف الجنوبية من المدينة العربية البائسة ذات السكان البائسين.

على السرير، في الزاوية اليمنى من الغرفة كان عارياً دون أيّ حراك بينما يخرج الذباب ويدخل من أنفه وفمه بلا استئذان.

## لن أعضّ شفتيكِ.. كثيراً

قلتُ لجوني بعدَ أن قدَّمتُ سيجارةً لهُ وأشعلتُ واحدةً لنفسي:

.وكيفَ سنستمتعُ بالرحلةِ إن كانت في مُعظمِها كئيبة؟

اللعين.. إنهُ يبتسمُ فقط.

هل جرَّبتَ أن تنظرَ في عينيّ شهيدٍ يا جوني؟ هل جرَّبتَ أن تصحو على قلقٍ وتنامَ على أرق؟

هل سمعتَ صراخَ الأمّهاتِ قربَ قبورِ أبنائهنَّ الذينَ أكلتهم الحربُ كما يأكلُ الغني الفقير؟

هل رأيتَ أحلامكَ وهي تتبخّرُ أمامَ عينيكَ وأنتَ محكومٌ عليكَ أن تحملَ الصخرةَ كسيزيف يوماً إثرَ يومٍ إلى قمّةِ الخيبة؟

.قل لي يا جوني.. هل جرّبتَ أن تكونَ سوريّاً لأسبوعٍ واحد؟

حسناً.. إن فعلتَ، أخبرني بعدها عن مفهومِ الاستمتاعِ بالرحلةِ طالما أنكَ جزءٌ منها.

مطرٌ في بسنادا..

أنا الآن عائدٌ من مدرستي مرتدياً تلكَ البدلة التي لم أكن أدركُ كم هي حلوة حتّى رأيتُ المسخرةَ التي يرتديها طلبة هذهِ الأيام..

المطرُ سيبلّلُ الكتبَ والدفاتر، سأنتظرُ قليلاً بجوارِ دكان (دلعونة) ريثما يهدأ وتنتهي السيجارة..

ما الذي يفعلهُ صوتُ المزاريبِ بالإنسان؟

سائقُ السرفيسِ في ساحةِ القريةِ ينتظرُ والدنيا لا تفعل..

موقفُ بسنادا في ذلكَ الزمنِ العتيقِ كانَ كموقفِ دارينا.. (ما حدا عارف لوين).

.أنا لن أعودَ الفتى الذي كنتهُ أبداً.. فتبًّاً.

لن ينتابني ذلكَ الشعورُ حين حلقتُ لحيتي بالموسِ أول مرة ولن أقفزَ عن حائطِ المدرسة هرباً من درسِ الإسلامية مرة ثانية... اللعنة..

أكادُ لا أصدقُ أنني لن أتشاجرَ من جديدٍ مع مُعلّمِ الرياضيات ذي النظارةِ البلهاءِ ولن أكتبَ على المقعدِ الخشبي..

(عاشق ليالي الصبر مدّاح القمر)..

هنالكَ شخصٌ كنتهُ وقد مات.

أتكئُ على الغيمةِ فتخذلني...

أستطيعُ أن أشاهدَ جسداً آخر يسقطُ إلى جواري وحينَ ألتفتُ حولي أرى جسداً آخر.. وآخر... آلاف الأجسادِ تسقطُ على أرضِ سوريا الحلوة.. سوريّا المَلعونة..

قلتُ لأنجلينا..

. من أجلِ شفتيكِ سمحَ زيوس للآلهةِ أن تتزاوجَ مع البشر، ألن تزورينا في الساحلِ ذاتَ يوم؟

نحنُ أيضاً لدينا مئاتُ الخِيام.

لن تجدي فيها مُشرَّدينَ كما في مخيمِ الزعتري لكنكَ ستجدينَ صوراً للأمواتِ إن كانَ يغريكِ الأمر.

آلافٌ رحلوا بصمتٍ وظلمٍ كي لا تصبحَ سوريا كلّها في أماكن كالزعتري.

تعالي أنجلينا.. زورينا..

أعدكِ.. لن أعضَّ شفتيكِ... كثيراً.

---

## القنطرة بعيدة

قبلَ تسعة عشر عاماً، لم يكُ الصيفُ قاسياً كمَا هو الحالُ عليهِ هذهِ الأيام.

الاعتقادُ السائدُ أن الاحتباسَ الحراري هو السبب. أنا لا أعتقدُ ذلك وأحسبُ أنها طريقة الطبيعةِ في التعبيرِ عن غيظها من أفعال البشر.

قبلَ تسعةِ عشر عاماً كان طقسي المُفضّل هو.. شواءُ البطاطا.

نجلسُ عزّ الظهيرة في ظلِّ أشجار التين والزيتون أمام منزلنا نستمعُ إلى سعدون الجابر أخي وأنا بينما نحتسي المتة ونُدخّنُ السجائر.

نعم..

كانَ الجلوسُ هناكَ بكسلٍ وتأمل ألسنة اللهبِ بالقربِ من الأعشابِ البرية الصفراء وأصوات (الزكازيك) من أحبِّ الأمورِ إلى قلبي..

( شعرك غابة.. شعرك ماي

وجهك جنة.. صوتك ناي

وبيني وبينك.. فرق هواي

وعمر معدّي، وعمر ال جاي)

يقولُ صاحب أعذبِ صوتٍ عراقي بينما نشعلُ النار استعداداً لوليمة الشواء.

تصرخُ والدتي شاكية من الدخانِ الذي أحاطَ المنزل بينما نحاولُ مراضاتها من خلال تصوير الوجبة الشهية التي سنُعدُّها بعد قليل.

سيجارة الشرق في تلكَ الفترة كانت ثروة بالنسبة إلينا.

ننتزعُ غصناً صغيراً يدبُّ الجمرُ في طرفهِ كي نشعلَ به السيجارة وبعد الانتهاء منها كان هذا ما يحدثُ أغلب المرات.

أقولُ:

.قم يا حبيبي مجد وأحضر سيخ اللحمة كي أحركَ الجمرات.

أخي الصغير مجد لا يتجاوز طوله الـ 195سم وفي كلامٍ آخر هو أطول مني بعشرين سنتمتراً.

تلبية الطلبات التي أصدرها بالنسبة إليه عملٌ غير منطقي لذا كان جوابه دائماً:

.قم وأحضر سيخَ اللحمةِ بنفسك.. ما الذي ينقصك؟

ثمّ.. ما إصرارك على تسميتهِ بسيخِ اللحمة في الوقت الذي لا توجدُ لحمة.

هو يكونُ كذلك عند استخدامهِ لشواءِ اللحم، أمّا عند استخدامهِ لتحريكِ جمراتِ النار وانتشالِ حبات البطاطا فهو مجرّد سيخ.

توشكُ وجبتنا أن تكونَ جاهزة فنضعُ إلى جوارِ البطاطا فحولَ البصل وحبات البندورة ثم نجلسُ من جديدٍ لمراقبة اللهبِ ويقولُ سعدون..

(تَاعبني يا قلب.. تَاعبني مشي الدرب

والشوق هزّ القلب.. والقنطره بعيدة)

من المنزلِ يأتي نداءُ الجياع المنتظرين وجبة الشواء..

نبعدُ الجمراتِ عن البطاطا والبصل ثم نسحب حبات البندورة من (السيخ)..

البصلُ المشوي في صحنٍ وحده..

البطاطا المشوية في صحنٍ وحدها، نقومُ بهرسها جيداً ثم نغرقها بزيتِ الزيتونِ مع رشاتٍ من الملح.

بعد ذلك تبدأ معركة صراع الوجود، والبقاء للأقوى.

حتى أبي وأمي كانا من جنودِ هذه المعركة وكما كانت قلوبنا أخوتي وأنا كان قلباهما.. بلا شفقة، بلا رحمة.

***

عندما كانَ عددُ أشجارِ الزيتون أكثرَ من عددِ المنازلِ في بسنادا كانَ للحياةِ طعم.

هذا الطقسُ الذي حدثتكم عنه أحرصُ خلال إجازاتي القليلة إلى سوريا أن أقومَ به مع أهلي لكن أشياء كثيرة تغيرت خلالَ السنين الطوال.. منها ما يُقال، معظمها لا يُقال لكمِّ البؤسِ فيه..

سوريا بأسرها تغيرت أيها الأصدقاء لكن.. ليسَ للأفضلِ بالتأكيد.

(وأمشي وقول وصلت. والقنطرة بعيدة)

_____

## في الطريقِ إلى قبو المرأةِ العجوز

تلكَ المرأةُ العجوز..

كُلَّمَا عَبرَت أمامِي افترسَ قلبي شعورٌ غريب.

أراها أحياناً وهي تحملُ كيساً أو أكثرَ من الخضارِ ومستلزماتِ المنزلِ.

تمشي مطرقة رأسَها في الأرضِ كأنَّما همومُ الكونِ فوقَ ظهرها.

مرة وكانَ حِملها ثقيلاً ركضتُ صوبَها وقلت:

.دعيني أساعدكِ أرجوكِ .

عزّة نفسها مَنعتها قبولَ عرضي بسهولةٍ لكنّ أصراري كان كبيراً، فقبِلت .

مشيتُ إلى جوارِها في زقاقِ الحي العشوائي قاصدين بيتها القابعَ في قبوِ إحدى العمارات.

لم أستطع كبحَ فضولي فقلت:

.أرى حزناً عظيماً يلقي بظلالهِ الكئيبةِ فوقَ ملامحك.

غريبة هذه المرأة، حتى أنها لم ترفع رأسها لتنظرَ إلي فكرّرتُ كلامي لكنها قالت بعد صمتٍ كئيب:

.سمعتكَ منذ المرة الأولى.

ولدي البكر استشهدَ في مجزرةِ جسر الشغور.

أخوهُ قتلوهُ بعد عام في حمص.

بقي عندي شابٌ يدرسُ في الجامعة وبنتٌ في بيتِ زوجها.

كادَ قلبي يقف قبلَ أن تتابعَ..

.أبوهم عجوزٌ مُقعد.

المعونة التي تقاضيناها بالكادِ تسدُّ الرمق.

وصلنا فأعطيتها الأكياسَ ثم راقبتها وهي تنزلُ درجاً معتماً لتلجَ القبو الداكن .

غيومٌ سوداءٌ كانت تلوحُ في الأفق.

الشتاءُ على الأبواب والناس يأكلها الموتُ فمن تبقى يطحنهُ القهر والفقر.

لا مرحباً بكَ أيها البرد.

---

## سيدةٌ من دمشق

من رآنا في ذلك اليوم الماطرِ من أيام تشرين الأول عام 2003 عندما كانت تمسكُ يدي ونحنُ نمشي بالقربِ من قصرِ العظمِ في سوقِ مدحت باشا لم يساورهُ الشكُّ لحظةً أننا حبيبان منذ زمنٍ طويل.

الحقيقة شيءٌ مُختلفٌ تماماً لأنني قبلَ ساعتين فقط لم أكن رأيتُ هذه السيدةَ الدمشقية من قبل.

السماءُ مرجٌ رمادي وبالقربِ من كلية الحقوقِ في البرامكة كانَ الناسُ على غيرِ عادتهم قلَّةً ومتى كانَ عددُ الناسِ قليلاً عمَّ الخيرُ العظيم.

امرأةٌ على أعتابِ الأربعين.. قصيرةٌ كما أشتهيها وعيناها كخنجرين زادهما الكحلُ سحراً تكفي نظرةٌ منهمَا لتدركَ كمِ الحتفُ سهلٌ، أما فمُهَا فهو إطلالةٌ تخطفُ الأنفاسَ على البركانِ القابعِ في أعماقِ الشهوةِ الأبدية.

مُمتلِئاً بأنوثتها وهيَ تُطالعُ أحدَ الكتبِ المفروشةِ على طاولاتٍ تُزيّنُ الشارعَ المُتاخمَ لجسرِ الرئيس، أشعلتُ سيجارة ثم اقتربتُ بهدوءٍ وتظاهرتُ بمعاينةِ الكتبِ حتى صرتُ قربَها تماماً .

كانت تقرأ في كتابِ الداغستاني الأشهر عبرَ التاريخِ فهمستُ دونَ أي تردّدٍ في أذنها..

.هل أخبرتكِ أن رسول حمزاتوف كتبَ إحدى قصائدهُ من أجلي؟

بثقةٍ شهيةٍ أشاحت عينيها عن الصفحاتِ ونظرت إليّ مُتسائلةً فقلتُ بعدَ أن نفثتُ سحابة دخان:

(تمهّل يا جوادي تمهّل.. أنا لم أتلفَّت خلفي

نحنُ نتركُ وراءنا قريتنا الحبيبة الغالية..

انطلق يا جوادي انطلق..أمامنا قرى تنتظرنا.. نجدُ فيها الصديق والأخ).

.وهل وجدتهما ؟

سألت السيدةُ بمَكرٍ ثمَّ وضعت الكتابَ من يديها ومشت..

كانَ لمؤخِّرتِها وهي تمشي لحنٌ لو سمعهُ شوبان لمَا تردَّدَ عن تخليدهِ في أروعِ قطعةٍ للبيان لكنَّ القدرَ شاءَ أن أسمعهُ بمفردي، وأنا مُجرَّدُ صعلوكٍ كئيب لا أفقهُ في الموسيقى علامة.

خلفها، مشيتُ بلا إرادةٍ وحينَ غدونا على الطرفِ الآخر من الجسرِ التفتت إليّ وقالت بحزمٍ:

.ماذا تريد؟

.بصراحة؟

.بصراحة.

.أريدُ أن أشربَ من نهديكِ حتى ينتهي الخمرُ تحتَ هذا المطرِ.

صمت.

توقَّعتُ أن أنالَ توبيخاً يليقُ بوقاحتي أو صفعة مدوية أو نظرة احتقارٍ على أقلِّ تقدير لكنَّها لم تفعل .

أمسكت يدي وقالت:

.تعال.

سألتُ كالأبله:

.إلى أين؟

وضعت إصبعها فوق شفتيها طالبة السكوتَ ثمَّ.. مشينا.

أصابِعُها الرقيقة بثَّت في يدي أجملَ شعورٍ يمكنُ لرجلٍ أن يحظى به من امرأةٍ قابلها للتو.

كانَ البرقُ يرسمُ على جدارِ دمشق السماوي آياتٍ عجيبة والرذاذُ يُداعبُ وجهينا أمَّا شوارعُ الشَّامِ فكانت بوَّابَاتُها الفاتنة تُفتحُ أمامنا بحنو.

دونَ أن نشعر وجدنا نفسينا في سوق مدحت باشا. دخلنا قصر العظم. استنشقتُ عبير الشجيراتِ الثملة.

خرجنا ..

في الحميدية تعمّدتُ أن ألمسَ بيدي المُمسكة يدها مُؤخِّرتَها فلم تُبدِ أيَّ انزعاجٍ لكنني أبديتُ رغبة في البكاءِ لشدةِ ما اشتهيتُ أن أضعَ خدِّي فوقَ لحمها البضّ.. وأنام .

لساعتين وهذه السيدة تسيرُ بي من شارعٍ إلى شارعٍ وحين أوشكَ المساءُ على التجلّي بهيبتهِ الخالدة توقّفت أمامي وقالت:

.أيهما أحلى؟ دمشق أم داغستان... أيها الداغستاني الأزعر؟

لم تنتظر إجابة بالطبع فعانقتني على حينِ غرة وتركت فوق شفتي قبلة خاطفة..

من رآنا في ذلك اليوم الماطرِ من أيام تشرين الأول عام 2003 لم يساوره الشكّ لحظة أننا حبيبان منذ زمنٍ طويل وفي الحقيقة..لا علاقة لهذه القصة بالحقيقة.

## الخادمة زينب

استيقظت سيدةُ الفيلا بعدَ مُنتصفِ الظهرِ بساعة.

كانَ الطقسُ مُواتياً لتناولِ فنجانِ القهوةِ على الشرفةِ فشمسُ النهارِ الربيعي دافئةٌ لا غيومَ تحجبها.

رمتِ السيدةُ .وما زالت مستلقية في سريرها .عبرَ الساتر الزجاجي نظرةً صوبَ الحديقةِ والتلالِ المُحيطةِ بغرفةِ النّومِ ثمَّ تمطَّت ونهضت.

أخذت حمَّامَاً سريعاً لتنشّطَ بهِ جسدها ثمَّ وضعت فوقَ وجهها مجموعةً من الكريماتِ والمرطِّبات والمراهم وبعدَ أن غدت بكاملِ أبَّهتِهَا عادَ أطفالها من مدارسهم لكنَّها . ككلِّ يومٍ . لم تكن في استقبالهم فالخادمة زينب كانت تفعل وهي من كانت تستيقظُ صباحاً لتحضيرِ الفطورِ للزوجِ والأولادِ ثمّ تبدأ رحلة تنظيفِ الفيلا وترتيبها مع الحرصِ الشديدِ على عدمِ إصدارِ أيِّ صوتٍ يزعجُ السيدةَ النائمة.

كانَ حظُّ زينب من الجمالِ ضئيلاً ومن الفقرِ كبيراً ومنَ العائلةِ مَعدوماً لأنّها نشأت حتى سنِّ المُراهقةِ في دارِ أيتامٍ دونَ أن تعرفَ شيئاً

عن نسبهَا وعندما كبرت خرجت في رحلةٍ للبحثِ عن الذاتِ مُعتمدةً على مدّخراتِها من الصَدَقَاتِ طوالِ السنين.

الرحلةَ كانت أكبرَ من قدراتها وبين شتاتٍ وآخر وجدت نفسها تعملُ في بيوتِ الأغنياءِ خادمة حتى حطّ بها الرحالُ في هذه الفيلا التي يمتلكها رجلٌ أعمالٍ معروف.

.يا حيوانة... جهّزي القهوة؟

صاحتِ السيدةُ بأعلى الصوتِ بعدَ أن اتصلت بِجارتها كي تحتسيا القهوة سويًّاَ فما كانَ من الأخيرةِ إلا أن أكَّدت الحضورَ على الفور.

سمعت زينب نداءَ السيدةِ فأنهت على الفورِ وضعَ الطعامِ للأولادِ وصنعت القهوة مع وصولِ الجارةِ بكاملِ أناقتها.

على الرغمِ من التقائِهما قبلَ يومين في مطعمٍ فاخرٍ إلا أنَّ ذلك لم يمنع الصديقتين من احتضانِ بعضيهما وتقبيلِ الوجناتِ أربعَ مرَّات وسطَ ازدحامٍ مرعب لكلماتِ الاشتياق!

جلست السيدتان إلى طاولةٍ رخاميةٍ مُزدانةٍ بغطاءٍ خمري مُطرَّزٍ بإتقانٍ وكانَ أمام كلّ واحدةٍ هاتفٌ من أحدثِ الماركاتِ العالمية وما هيَ إلا دقائق حتى أحضرت زينب القهوة ووضعتها برويّةٍ أمامهما وأوشكت على الانصراف لكن سيدة الفيلا قالت:

.هل تناولَ الأولاد طعامهم؟

.تناولوا يا سيدتي..

.إن أخبرتكِ فهل تصدقين يازينب؟

قالت السيدةُ فأجابت زينب:

.بالتأكيدِ أصدّقك..

.أنتِ أقبحُ امرأةٍ رأيتها في حياتي ولولا ثقتي العمياء أنّ زوجي لا يمكنُ أن ينظرَ إليكِ لما تركتكَ لحظة في هذا المكان.

انفجرت السيدة وضيفتها ضحكاً بينما كانت زينب غارقة في بحرٍ مضطربٍ من القهر.

.انصرفي الآن

انصرفت الخادمةُ بينما راحت كلّ واحدةٍ من السيدتين تقلّبُ في صفحتها الخاصة على موقعِ (الفيسبوك) وما هي إلا دقيقة حتى تذكّرت زوجة رجل الأعمالِ عبارةً كانت قد قرأتها قبلَ مدّة فكتبتها على الفور..

.الوطنُ ليسَ فندقاً تغادرهُ عندما تسوءُ الخدمة فيه.

وعلى الفورِ حظيَ منشورُ سيدةُ الفيلا بإعجابِ صديقتها الجارة ثم حظيَ بعد ساعتين بإعجابِ ثلاثمائة وخمسة عشر صديقاً وصديقة من أصحابِ وأبناءِ الشركاتِ والفيلات والفنادق .

بعدَ منتصفِ الليلِ بألفِ قهر..

تسللت زينب إلى غرفةِ السيدة التي كانت تنام وحيدة لأن زوجها سافرَ بشكلٍ مفاجئ في رحلة عمل.

وقفت بالقربِ من سريرِ المرأة الراقدة واستمعت إلى أنفاسها المنتظمة ثمّ أخرجت من جيبِ سترتها مدية زرعتها في أحشاءِ السيدة ثلاث مرّات وقبلَ أن تلفظَ أنفاسها الأخيرة قالت لها زينب..

.هل تصدقين إن أخبرتكِ؟

صحيح أن زوجكَ لم يخنكِ معي ولا مرّة لأنني أقبح امرأةٍ رأيتها في حياتكِ لكنّه الآن مع جارتكِ في نفسِ السرير وإياكِ أن تسألي خادمة عن معرفتها بجميعِ أسرارِ البيتِ الذي تعملُ فيه.

هنالك أمرٌ آخر..

.في حياتكِ القادمة. إن كانَ هنالك من حياة قادمة.

كوني لطيفة.

---

## زعيمُ مافيا

وَصَلَت إلى بريدي الإلكتروني تِسعُ صورٍ لنساءٍ عارياتٍ وكانَ مُرسِلُها، المُدير.

رجلٌ تجاوزَ الستينَ بيدَ أنَّ المؤسسةَ لم تُحلهِ إلى التقاعدِ نظراً لخبرتهِ الغزيرة وإتقانهِ العديدَ من المهاراتِ الإعلامية والفنيّة.

وعلى الرغمِ من فارقِ العُمرِ إلَّا أن صداقةً نشأت بيننا أزاحتِ التَّكلّفَ والحواجزَ فالكتبُ الكثيرةُ التي أتاحَ لي الربُّ قراءتَها مَكّنتني من أمورٍ لم يكن بمقدوري دونَ الكُتُبِ أن أتخيلَهَا.

كانَ (الإيميلُ) في ذلك الوقتِ أحدثَ تقنيةٍ مُستخدمةٍ لتبادلِ الرسائلِ والصورِ ومقاطعِ الفيديو.

من بابِ كسبِ الثوابِ ما كانَ أحدٌ يتركُ صورةً مثيرةً أو مقطعَ فيديو يقفُ عندهُ فما أن يرتوي حتى يضغطَ على أيقونةِ (إعادة الإرسال) وينتقي من باقةِ الأصدقاءِ الثقة ومن ثمّ.. إرسال.

هكذا، كانت صورُ النساءِ العارياتِ ومقاطعهنَ الفيديوية تسبحُ من صندوقِ بريدٍ إلى آخر حتى جاءَ اليومُ الذي وصلني فيهِ فيديو لامرأةٍ أمريكيةٍ تتبوّلُ وهيَ واقفة.

بعدَ أن شاهدتُ المقطعَ عشرينَ مرةٍ دونَ أن أسأم أعدتُ إرسالهُ إلى قائمةِ أصدقائي المُخلصين وكانَ من بينهم مروان الذي هاتفني على الفورِ قائلاً:

.ما زلتَ دقةً قديمة.

استغربتُ كلامهُ وسألت:

.لماذا؟

أجابَ ببرود :

.لأنكَ تستخدمُ الإيميل.

استمرَّت إشاراتُ الاستفهامِ بالتكاثرِ فوقَ رأسي لكنهُ أوقفها حين تحدّثَ عن اختراعٍ ثوري اسمهُ (الفيسبوك) وقال:

.يتيحُ الفيسبوك تبادلَ الصورِ والرسائلِ والفيديو بطريقةٍ رائعةٍ وسرعةٍ مذهلةٍ ويمكنُ عن طريقهِ كسبُ الأصدقاءِ ومشاهدة ما يفعلونهُ في حياتهم اليوميةِ بالإضافةِ إلى الاطِّلاعِ على شتى بقاعِ الأرضِ دون أن تبارحَ صفحتكَ الشخصية.

حينَ أخبرتُ إحدى زميلاتي في العملِ عن الفيسبوك قالت:

.عندي صفحة ويمكنُ أن أساعدكَ في إنشاءِ واحدة.

كانون الثاني، أو شباط 2011، لستُ أذكرُ على وجهِ الدّقةِ في أيّ شهرٍ دخلتُ إلى رحمِ العالمِ الأزرقِ وعدد أصدقائي حينها اثنان، مروان وزميلة العمل.

بعدَ أيامٍ قليلةٍ استقبلتُ خمسة أو سبعة طلباتِ صداقة من أشخاصٍ لا أعرف عنهم شيئاً وأرسلتُ بدوري ما تيّسرَ لي من طلباتِ الصداقة إلى أشخاصٍ لا أعرفُ عنهم شيئاً لكنَّ ذلكَ لم يكن مُهِمَّاً ومن خلالِ هؤلاءِ الأصدقاءِ الجُدد اطّلعتُ على أفكارِ وصورِ أصدقائهم عبر تعليقاتهم أو إعجاباتهم وهكذا اكتشفتُ أن للفيسبوك ميزة أخرى تتعدى إرسالَ صور النهودِ اللذيذةِ والمهابلِ الطازجةِ وهذه الميزة هي: النشر.

في ذلكَ الوقتِ كانت حياتي تتمحورُ حولَ الشِّعرِ..

حول المتنبي، نزار قباني، أبي نواس، النابغة وامرئِ القيس وعنترة والمعتمد بن عباد ومحمود درويش وجرير والفرزدق وعمرو بن كلثوم وزهير بن أبي سلمى وكنتُ عاشقاً للعروضِ وتقطيعِ الأبياتِ حتى وصلتُ إلى مرحلةٍ بدأتُ فيها أقطّعُ كلامَ الجريدةِ عروضياً كي أعرفَ موسيقى كلِّ كلمة.

بين عامي 1998 و2010 نشرتُ العشرات من قصائدي في صحفٍ ومجلاتٍ سورية وعربية كنتُ أراسلها عن طريقِ البريدِ الإلكتروني وأترقبُ موعدَ الإصدارِ كي أرى قصيدتي منشورة فاحتفظُ بالعدد الذي ضمَّهَا وإحدى هذه القصائد فازت ذات يومٍ بجائزةِ أفضلِ قصيدة أجرتها مجلة الصدى أو زهرة الخليج لست أذكرُ على وجه الدّقة وكانَ مطلعها:

أعاتبها من فيضِ شوقي لوجهها فتدنو بغنجٍ كالمُحالِ وتبعدُ..

هذه القصيدة انضمَّت فيما بعد إلى ديواني (أوراق نساء) الذي صدرَ حاملاً تجربتي الشعرية وبعدهُ قلت لنفسي:

. هذهِ التجربة يجبُ أن تتوقفَ عند هذا الحدِّ فما أردتُ قولهُ شِعراً.. قلته.

في يومٍ من ذاتِ الأيام وكنتُ أتطفلُ على صفحاتِ أصدقاءِ أصدقائي الذين لا أعرفُهم قرأتُ منشوراً شاركهُ أحدهم وعليه (35 لايك) وكان هذا الرقمُ أكبر تسجيل لحالاتِ الإعجابِ ألمحهُ على الفيسبوك.

في ذلك المنشور تحدثَ صاحبهُ عن حتميةِ انتقالِ الثورةِ من ليبيا إلى سوريا من كلّ بد.

خلال الأيامِ التالية بدأت أرى الكثيرَ من صورِ الصفحاتِ الشخصية على شكلِ قبضاتٍ متأهِّبة ونسورٍ عابسةٍ وتجمّعاتٍ مُشتعلة حتى جاء منتصفُ آذار 2011 .

يومها انطلقت في سوريا واحدة من أفشلِ الثوراتِ عبرَ التاريخِ البشري، الثورة التي ساعدت النظامَ الذي ثارت عليه في تلميعِ صورتهِ والتغاضي عن فسادهِ وقرفهِ أما كيفَ ساعدتهُ فمن خلال طائفيتها وغبائها ودمويتها وسهولة التلاعبِ فيها وشراءِ قوَّادها حتى أصبحتُ مقتنعاً بعد مرورِ السنينِ أن الثورة السورية لم تكن سوى حبلِ نجاةٍ رماهُ أحدهم بطريقةٍ ما كي لا يكونَ للنظامِ بديلاً في المئة عام القادمة ولأنَّ الأمورَ تقاسُ بنتائجها تمعّن في كلِّ ما نتجَ عن الثورةِ السورية وتفكّر.

في الأشهرِ الأولى من الثورة المقيتة قرأتُ عن طريقِ الفيسبوك أقرفَ وأقذر ما يمكن للفكرِ الطائفي أن ينتجه .

ممثلون، منتجون، مؤلفون، مسؤولون سابقون في أعزِّ مراكزِ النظام، موسيقيون، أبناء مومسات.. إلخ.. إلخ.. إلخ.. كلهم ساهموا في مهاجمةِ طائفةٍ واحدةٍ وحمَّلوها وزرَ عشراتِ السنين من فسادِ النظامِ الذي شاركت وما زالت تشاركُ طوائفهم فيه بدرجةٍ متساويةٍ أو تقلُّ قليلاً.

كمغتربٍ عن سوريا منذ العام 2007 كانت الطريقة الوحيدة التي يمكنُ أن أساهمَ من خلالها في هذه المعمعةِ هي الفيسبوك فجنَّدتُ نفسي وبدأتُ أكتبُ كمحارب ومن خلالِ هذه الكتابات اكتشفتُ أن سردها يتجه بشكلٍ ما نحو القصةِ القصيرة دون أي تدبيرٍ مني وهكذا، في العام 2013 كتبتُ أول قصة قصيرة لي وكان عنوانها:

**(لا أشربُ المتة مع الرئيس)**

توالت بعدها قصصي التي لاقى عددٌ لا بأس بهِ منها إعجابَ القراءِ فصدرت لي ثلاث مجموعاتٍ قصصية هي (المبغى) و (اختلافٌ عميقٌ في وجهاتِ النظر) والمجموعة التي بين أيديكم الآن وقد حاولتُ في هذه القصصِ أن أكونَ صادقاً مع نفسي ومع القارئ وأن أحترمَ عقلهُ فلا أتحدثُ عن الغريزةِ كما يتحدثُ راهبٌ ولا أتحدثُ عن الفسادِ كما يتحدثُ الرئيس ولا أتحدثُ عن الجنودِ الفقراء كما يتحدث التّاجرُ بل قررتُ أن أتحدثَ عن جميع تلك القضايا وغيرها كـ. زعيم مافيا.

---

## مشهدٌ بحري

في سماءِ اللاذقيةِ غيمٌ أزرقٌ يتهادى مخموراً..

من كلّ شيءٍ حولنا تفوحُ رائحةُ الشتاءِ تلكَ التي تبقى زمناً عالقة بالمعاطفِ الجلدية وكنزاتِ الصوفِ ذاتِ الياقاتِ المرتفعة والمظلاتِ المبللة، رائحة التبغِ في الزمنِ الأول.

لم يكن مطراً ذاكَ الذي رافقنا على طولِ رصيفِ الكورنيش الشمالي حينما ولِجَت باخرةٌ كبيرةٌ مُحمَّلة بعددٍ هائلٍ من الصناديقِ مرفأ المدينةِ.. كانَ رذاذاً.

قالت:

.لنجلس قليلاً.

باقةٌ من الطاولاتِ المستديرة والكراسي الملونة اصطفَّت عن يسارنا تحتَ سربٍ من الشجرِ المُطلِّ على

السفنِ وما بانَ من البحرِ.

في زاوية المكانِ الجنوبيةِ كانَ رجلٌ نحيلٌ برفقةِ فتىً خمَّنتُ أنه ابنهُ يجلسانِ قربَ عربةٍ لبيعِ الشاي والقهوة والأراكيل.

تأمَّلتُ الطاولاتِ التي أصابَها قليلٌ من الرذاذِ لأنَّ الشجرَ يحميها ثمَّ هبَّت نسمةٌ باردة من صوبِ البحرِ دفعتني إلى دسِّ يدي في جيبِ معطفي بينما رفعتُ الثانية إلى فمي وجذبتُ من السيجارةِ نَفَسَاً عَميقاً تركتهُ يذهبُ في حالِ سبيلهِ مُحمَّلاً بالدخانِ الدافئ وقلت:

.لم لا، لنجلس.

طلبتُ من الفتى الذي اقتربَ فنجانين من القهوةِ ثمَّ حينَ أحضرهما تبسَّمتُ في وجههِ وراقبتهُ عائداً إلى أبيه.

.الإنسانُ حفنةٌ من ذكريات ..

قلتُ وأنا أملأ عيني بتلكَ التفاصيلِ الماطرة فأمسكت بيدي وقالت:

.أرجوكَ لا تُطِل الغياب.

ثم كأنّي لمحتُها تبكي لكنني حاولتُ إلهاءَ نفسي وفي ذات الوقتِ سمعتُ صوتَ فيروز..

.وعدك إلي ونروح.. نسرح بمرج بعيد..

أشعلتُ سيجارة ونظرت في عينيها فكانتا غائمتين كسماءِ اللاذقية لكن لا بُدَّ من السفر ..

.عندما يبخلُ الوطنُ بحياةٍ كريمةٍ لا بدَّ منَ السفر.

اقتربتُ منها وضممتُ وجهها فهالني كم كانَ خدُّها بارداً.

قبّلتهُ ووعدتها.

أمّا أنا أيها الرفاق فرجلٌ من المدرسةِ القديمة.. وعدي صدقٌ وكلمتي سيف.

لم يكن مطراً ذاكَ الذي رافقنا على طولِ رصيفِ الكورنيش الشمالي حينما ولجت باخرةٌ كبيرةٌ محملة بعدد هائلٍ من الصناديق مرفأ المدينةِ..

كانَ رذاذاً.

_____

# أخبار

أتابعُ عن كثبٍ أخبارَ النساءِ وتفاصيلهنّ ذاتِ الورود..

ضحكاتهنّ على أبسطِ الأشياء، صورهنّ، وعودهنّ الكاذبة والصادقة وانشغالهنّ بتسريحاتِ شعورهنّ وألوانِ أظافرهنَّ.. خاصةً أظافر أصابعِ القدمين..

أخبارُ النساءِ فيها جنونٌ جميل.

أفلامُ الرّعبِ تبدو كوميدية ساخرة أمام أخبارِ ما تبقى من هذا العالم..

———

## رسائلٌ محذوفة

.احتمالان لا ثالثَ لهُمَا.. أرسلهَا وليكُن ما يكون.

منذُ العام 2015، قبلَ خمسةِ أعوام، شاهدَ صورتها في موقع التواصلِ ضمنَ الأشخاصِ الذينَ من الممكنِ أن يعرفهم.

هو، كانَ مُتأكِّداً من عدمِ معرفتها كمَا كانَ مُتأكداً أنها أجمل امرأةٍ رآها يوماً.

قد يعتبرها الآخرون فتاةً عادية لكن ثمّة سرٌّ في ضحكةِ عينيها خطفَ أنفاسه.

مع مرورِالساعاتِ والأيّام والشهور، ومن خلالِ متابعتهِ الدائمة لما تنشرهُ من كتاباتٍ على صفحتها المُزينة بصورها الدافئة، اكتشفَ أنّها ليست أجملَ امرأةٍ رآها يوماً وحسب، بل صاحبة أجمل عقلٍ أيضاً.

أحبَّها كما يليقُ بتلك الكلمة التي فقدت بريقها، أحبَّها بجنونٍ وصمت.

منذ ذلك اليوم في عام 2015، عندَ المساء، مع خمسِ سجائرٍ، تزيدُ أو تنقص، يكتبُ إليها رسالةً ثمّ يتوهُ في دوامةِ الخوفِ والتّردّد..

يُشجّعُ نفسه ويقول:

.احتمالان لا ثالثَ لهما.. أرسلها وليكن ما يكون.

ثمّ يحذفها ويذهبُ إلى الخيال.

كانَ الخوفُ من الاحتمالِ الثاني فوقَ قدرةِ قلبهِ الهشِّ على الاحتمال.

_____

## رحلةُ البحثِ عن الكنز

كانَ من المفترضِ أن نجلسَ سوياً مرتين خلال الأسبوع، لساعتين على الأقلّ، في مقهىً مجاورٍ للبحرِ أو مطلٍّ على ثلوج كلمنجارو، لا فرق.

نُدخِّنُ ونقرعُ كؤوسَ البيرةِ أو الويسكي، لا فرق.

نتجاذبُ أطرافَ الحديثِ عن النساءِ والحربِ والبلادِ التي تأكل بثدييها، بيدَ أنَّ اختلافنا كانَ عميقاً.

فبقدرِ شغفهِ بالصيد كانَ كرهي له، ناهيكَ عن أنهُ أطلقَ النار على نفسهِ ببراعةٍ ثمّ مات.

.أنتَ تعتقدُ أن العثورَ على صديقٍ أمرٌ سهل، يا لكَ من مُغفل.

لستُ معجباً بالوحدةِ كثيراً لكن حاولتُ طيلة السنين الماضية ألا أستعيضَ عنها بأشخاصٍ أسوأ منها.

إن أخبرتكَ عن رحلتي كي ألتقي بذاكَ الآخر ستقول إنّني أبله لكنني فعلتها وماذا كانت النتيجة؟

هوسٌ مستمرٌ بكاترين الحلوة وانتظارٌ أبدي لامرأةٍ ستخرجُ ذات مساءٍ من أمواجِ البحر كي تمنحني جسدها..

اللعنة عليه، لو أصغيتُ لكلامهِ لبقيتُ حتى الآن دونَ أن ألمسَ سوى تلك المرأة. لهذا.. تركتهُ مستلقياً على ذلك الشاطئ البعيدِ دون وداع.

صدِّقني لستُ مغروراً ولا مُتكبراً لكنّ الدماغَ الذي أودعهُ الله داخلَ جمجمتي غريب شيئاً ما وإن قلتُ لكَ إنني مسيطرٌ عليه سأكون كاذباً.

هكذا توجّهتُ إلى جبالِ داغستان وأمضيتُ أياماً برفقةِ فتاها لكنّ الحكمةَ المنسكبة من أوراقهِ طوال الوقتِ مثالية جداً على شخصٍ مثلي يكره فجورَ المدنِ ويشتهيه فصرفت النظرَ عن البقاء.

.إيّاكَ أن ترسمَ هذه الابتسامة اللعينة على شفتيك، أنا لستُ تائهاً لكنني شخصٌ بسيط يبحثُ عن رفيق.

على فكرة، البطاريقُ بدأت تخرجُ من هذا الإبريق وعليكَ أن تسخِّنَ الماءَ كي أكملَ الحديث.. المتّة بماءٍ باردٍ مُقرفة. سأشعلُ سيجارةً في انتظارك.

.أين كنّا؟

.في قرية تسادا.

.وبعد؟

حين سمعتُ عن مجونه وعربدته قلتُ لنفسي:

.هذا هو... سنصبحُ أصدقاء.

لستُ معجباً بالقرنِ السابع عشر كثيراً لكنّ فضولَ التعرف إليه ومشاركته بعض الخطايا دفعني إلى هناك..

بعدَ أن أحرقنا بالشمعِ حلماتِ النساء ووضعنا ما لا يمكنُ تخيّله في أجسادهنّ التي تقطرُ عرقاً ودماء أفقتُ من هولِ ما اقترفناه وصارحته حين كنا في ذلك السجن:

.اسمع يا هذا، لا أستطيعُ الاستمرار في تعذيبِ النساء وإنني نادم..

ثم كان فراقاً بيننا..

كنتُ بحاجةٍ ماسّةٍ لمن يحملُ أوزاري إثرَ ما فعلتهُ وثمّة لوحةٌ متوارية داخل ضبابِ لندن تحملُ عن صاحبها عبءَ التّقدمِ في العمرِ وأثقالَ الموبقاتِ في حين يبقى هو شاباً أبدَ الدهر.

سافرتُ إلى هناك وعندما قابلتُ صاحبها عرضتُ بيعَ روحي للشيطانِ مقابل صداقته شريطة أن تكون اللوحة لي فكما تعرف.. أريد من أعماق قلبي أن أبقى فتياً وألّا أشعرَ بالندم على أيّ شيءٍ اقترفه..

.وهل قبل؟

.لا أحد يبديكَ على نفسه.. بالطبع لم يقبل لكن الأمر كان يستحق المحاولة.

إياك أن تعتقد أنني استسلمت..

تابعتُ البحث.. أخبروني عن قرصان بساقٍ واحدة يبحثُ مثلي منذ سنوات طويلة عن الكنز..

حين أصبحنا أصدقاء رحنا نخوض البحار سوياً.. نسكرُ ونعبّ التبغ ثمّ في جزيرة نائية وجدنا الكنز لكنه كان كنزاً وحسب، شيئاً لم نصنعهُ بإيدينا.. شيئاً من الصعب أن يرضي غرورنا.

اتفقنا حين افترقنا على أنه..

(قد يأتي يوم نجدُ فيه ما ضيعنا العمرَ في البحث عنه وإذا لم نعثر عليه ستصبح الحياة تعيسة.. ستصبح تعيسة حياتنا) يا صديقي.

## ردّ الجميل

بعدَ أن حاربَ في سبيل الوطنِ وأصبحَ مشلولاً بشظايا قذيفة..

منحتهُ القيادة الحكيمة ثلاثين ألف ليرة شهرياً كي لا يموت جوعاً.

إنّ موتَ الناسِ قهراً لعبتها المفضلة.

———

## معلومة

الإنسانُ يتعلّمُ ببطءٍ عجيب.

تطلّبَ منّي الأمرُ عشرينَ عاماً كي أدركَ أنني لستُ محورَ الكون.

_____

# حُبّ الوطن

ببزَّتهِ العسكريّة المُهترئة دخلَ المتجر وطلبَ من البائعِ علبةَ تبغٍ وبعضَ الأغراض المنزلية.

تفاجأ بِسعرها الذي تجاوزَ نصفَ المُرتَّبِ الذي يتقاضاهُ من القيادة الحكيمةِ تقديراً منها لهُ على محاربةِ الإرهاب.

أشعلَ في طريقِ العودةِ إلى المنزلِ سيجارة وقالَ لنفسه:

. إن كانَ الحالُ هكذا وأنا على قيدِ الحياةِ فكم سيدفعُ الحزبُ التصحيحي القائد والمناضلِ للزوجةِ والفتاتين إن سافرتُ دون عودةٍ إلى العالمِ الآخر؟

أوشكت أيّامُ الإجازةِ على الانتهاءِ وكذلك طريقُ العودةِ إلى المنزل..

ما أن ولجَ من البابِ حتى تسابقت ابنتاهُ كي يلعبَ معهما..

أعدَّت الزوجة طعامَ العشاءِ وتحلّق الجميعُ حولَ المائدة المتواضعة وهم يتابعونَ التلفاز..

كانت الفضائية السوريّة تستضيفُ مجموعة من المسؤولين الحزبيين للحديثِ عن حبِّ الوطن قبلَ أن تُقطعَ الكهرباء.

_____

## كما لو كانَ حلماً

ثمَّ تُصبحُ الأيّامُ خلفكَ وكانت قبلَ لحظةٍ، منذ عشرين أو ثلاثينَ عاماً في انتظارك.

تلتفتُ وراءكَ بريبةٍ لترى وجهكَ خالياً من ندوبِ الزمن. شعركَ الأسودَ وقامتكَ المشدودة..

شجاعتكَ أمامَ كل شيءٍ وإقدامك، عنفوانكَ وابتساماتِ الصبايا فوق صدرك

بيتَ أهلكَ ورائحة الغرفةِ العتيقة، الأغنيات والتبغ الرخيص.

تلتفتُ وراءكَ بريبةٍ وتسألُ:

.كيف؟ ومتى؟

تسألُ بكاملِ قواكَ العقلية

كأنَّ أحدهم سيجيبُ دونَ أن تعي أنّ كاملَ قواكَ العقلية.. نالَها ما نَالك.

## كاميليا

عندما وصلَ إلى صفحتي الشخصية على الفيسبوك قبلَ أعوامٍ طلبُ صداقةٍ منها وكنتُ حينها أهتمُّ بكلِّ طلبٍ يصل، فعلتُ ما أفعلهُ عادة قبلَ أن أوافقَ ودخلتُ إلى صفحةِ المُرسلِ كي أتعرّفَ قدرَ الإمكانِ عليه.

باستثناءِ صورتها وبعضِ المعلوماتِ المُتعلقةِ بالدراسةِ كانت الصفحةُ شبهَ خاويةٍ فاعتقدتُ أن الحسابَ وهمي. وعلى الرغمِ من جمالِ صاحبةِ الصورةِ وعينيها الزرقاوين كبحرٍ تمّوزي.. تجاهلتُ الطلب.

بعد أيامٍ وصلتني رسالةٌ منها تقول:

.ظننتكَ تهتمُّ بصداقةِ النساءِ أكثر.

أجبتُ على الفور:

.سامحيني أرجوكِ لكنَّ حسابكِ شبه خاوٍ واعتقدتُ أنَّهُ واحدٌ من تلكَ الحساباتِ المُزيفة.

قالت:

.اطمئن، هذه صفحةٌ حقيقية وأنا صاحبتها.

.أنتِ التي في الصورة؟

.ولم الاستغراب؟

.لأنكِ أجمل من أن تطلبي صداقةَ أحدٍ وحريّ بالجماهيرِ أن تطلبَ الودَّ منك.

.لكنني أحبُّ قصصك.

دقائقٌ من الصمت.

أشعلتُ سيجارة وأنا أعاودُ الدخولَ بسرعةٍ إلى صفحتها ثمَّ وافقتُ على الطلبِ الذي أرسلته.

بعد دقيقتين أو أكثر بقليل جاءني منها الشكرُ على القبول فقلت:

.أهلاً كاميليا، من أين أنتِ؟

.من لبنان.

.أنعم وأكرم.

طبعاً، خلالَ المحادثةِ كانت صورتها أمامي على شاشةِ الحاسوب بتلك البشرةِ النقيةِ والشعرِ الأشقرِ الناعمِ والعينينِ الزرقاوين الناعستين.

هكذا أصبحت وكاميليا.. صديقين.

مثلّ أيّ مواطنٍ سوري ينتمي إلى البروليتاريا لم أزر لبنان مرةً في حياتي وبصراحة لم يكن يعنيني ذلك فالطبيعة التي كانت القنواتُ اللبنانية تصوّرها من خلالِ برامجها عن البلدِ ما كانت تختلفُ بشيءٍ تقريباً عن الطبيعةِ في مدينتي اللاذقية.

كانت الساعة قد جاوزت منتصفَ الليل حينَ عاودت كاميليا مراسلتي:

. أتريدُ إقناعي أن جميعَ قصصِ العشقِ التي تكتبها عن النساءِ حدثت معكَ بالفعل؟

سكبتُ في كأسِ المتة بعضَ الماءِ بعدَ أن وضعتُ نصفَ ملعقةٍ من السكر وأشعلتُ سيجارة جديدة:

.كوني على ثقة .. لا أريد.

.لا تريد ماذا؟

.لا أريد أن أقنعك .. لستُ مُهتمَّاً بإقناعكِ أو إقناع أحد.

ثم أضفت:

.هل أعجبتك؟

.لو لم تعجبني لما أرسلتُ طالبة صداقتكَ على الرغمِ من أنني لم أطلب صداقة أحدٍ قبلك.

.هذا ما يهمني عزيزتي. أن تعجبكَ سواءً صدّقتها أم لم تفعلي وكذا الحالُ مع جميعِ قرّائها.. يهمني جداً أن تعجبهم.

.لن أطيلَ عليكَ أكثر، أخذتُ من وقتكَ كفاية.

قالت كاميليا بينما كنتُ أمنّي النفسَ بمحادثتها أكثر وصولاً إلى صورةٍ خاصة ترسلها إلي.

قلت:

. بالفعلِ أخذتِ من وقتي الكثير إذ كنتُ على وشكِ إجراءِ تجربة على طبيعةِ الإلكترون الموجيّة لكنكِ ألهيتني عن إتمامها.

ضحكت الصبية الحلوة فأيقنت أنني، كسرتُ الجليد.

في مراهقتي قرأتُ الأعمالَ الكاملة لجبران خليل جبران وهكذا أصبحَ لقريةِ (بشرّي) مسقط رأسه مكانة كبيرة في وجداني فما بالكم وقد عرفتم أن كاميليا من هناك أيضاً.

مواهبي في هذه الحياة تكادُ تكونُ معدومة باستثناء إحساسي بالمرأة.

أستطيعُ من أولِ عبارةٍ ترسلها إحداهنّ أن أخمّن إن كانت سترسلُ صورة عارية لها أو لا... وصدقوني لم يخب حدسي في هذه الجزئية ولا مرة.

تسعون في المئة من النساءِ يرغبنَ فقط بالثرثرة و لا يرسلنَ سوى صورٍ لوجوههنَّ مُعتقداتٍ أنني موظفٌ في دائرةِ النفوسِ وأريد أن أصدرَ لهنّ بطاقاتٍ شخصية.

مع كاميليا كانَ الوضع مُختلفاً، لهذا كنتُ أنتظرُ بين السطورِ التي تكتبها صورة وحين جاءت.. شكرتُ الله على النعمةِ وأشعلتُ سيجارة.

كان جسدُ كاميليا أجملَ من وجهها وكانَ وجهها أجملَ من مخيلتي وكانت كلها على بعضها لحناً لأغنيةٍ قالت بها فيروز..

(نطرتك أنا ندهتك أنا رسمتك على المشاوير..)

بعد يومين أو ثلاثة.. دخلتُ عالمي الافتراضي باحثاً عنها لكنني لم أعثر على صفحتها.

اختفت كاميليا من حياتي مرّة واحدة وإلى الأبد.. دون أن أعرفَ السبب.

يومها.. قلتُ لنفسي:

.ربّما كانت مُجرَّدَ وهم؟

لكنّ صورةً محفوظةً في مكانٍ ما من القلبِ.. قالت:

.كانت أغنية.

_____

## الفهرس


| | | |
|---|---|---|
| 1- | الرسالة الأولى منها والأخيرة | 7 |
| 2- | القصة الغريبة للمواطن أحمد عبد الوهاب | 13 |
| 3- | تفاصيل عتيقة | 15 |
| 4- | إنسي المصباح | 17 |
| 5- | أيام في البدروسيّة | 20 |
| 6- | بلاد لا تعرف إلى أين | 56 |
| 7- | العزف حرام | 59 |
| 8- | نافذة باردة | 61 |
| 9- | الإعلامي | 67 |
| 10- | في انتظار الحافلة | 72 |
| 11- | اقرأ كتاباً يا أخي | 76 |
| 12- | أمي وقصصي | 79 |
| 13- | لا أشرب المتّة مع الرئيس | 82 |
| 14- | فوق ثلوج قاسيون | 85 |
| 15- | وجه المدينة المشوّه | 87 |
| 16- | على الورق | 89 |
| 17- | اللعبة | 91 |

18- تراجيديا 96
19- رسالة من الجبهة 97
20- الراهب 98
21- امرأة في كتاب 99
22- البعث 102
23- لن أعضّ شفتيك 106
24- القنطرة بعيدة 109
25- في الطريق إلى قبر المرأة العجوز 113
26- سيدة من دمشق 115
27- الخادمة زينب 119
28- زعيم مافيا 123
29- مشهد بحري 129
30- أخبار 132
31- رسائل محذوفة 133
32- رحلة البحث عن الكنز 135
33- رد الجميل 139
34- معلومة 140
35- حب الوطن 141
36- كما لو كان حلماً 143
37- كاميليا 144

**حازم ضاحي شحادة**

أديبٌ سوري من مواليد 1982.

حاصلٌ على إجازةٍ في الإعلامِ من جامعةِ دمشق.

يكتبُ في الصحافةِ العربية منذ عقدين..

تأتي مجموعتهُ القصصية (**أيامٌ في البدروسية**) بعدَ أن صدرَت له الكتبُ التالية:

**أوراق نساء** / شِعر/ 2012

**المبغى** / قصص قصيرة / 2019

**اختلافٌ عميقٌ في وجهاتِ النظر** / قصص قصيرة / 2020

نُشرت العديد من قصائده وقصصه في مجلاتٍ وصحفٍ ومواقعٍ إلكترونية سورية وعربية..